

حقيقة القرآن الكريم والتراث ومنهج
التعامل معهما عند الدكتور/ نصر حامد أبو
زيد في كتابه: «مفهوم النص، دراسة في
علوم القرآن» دراسة نقدية

د/ عبدالغفار أحمد عبدالغفار أحمد

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن بكلية
أصول الدين والدعوة بالمنوفية

ملخص البحث

حقيقة القرآن الكريم والتراث ومنهج التعامل معهما، عند الدكتور/ نصر حامد أبو زيد في كتابه: «مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن» دراسة نقدية.

د/ عبدالغفار أحمد عبدالغفار أحمد

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن، بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية.

البريد الإلكتروني: dr.abdelghafar.ahmed@gmail.com

الإيميل الجامعي: abdulghafarahmad.adv@azhar.edu.eg

الملخص:

يدور البحث حول دراسة شخصية من الشخصيات التي تبنت نظريات الحداثة، ورأت أن تطبيقها في فهم القرآن الكريم هو التجديد المنشود؛ للحاق بركاب الحضارة والتخلص من التخلف، وهذه الشخصية هي الدكتور/ نصر حامد أبو زيد، في كتابه: «مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن» في تمهيد الكتاب بعنوان: «الخطاب الديني والمنهج العلمي».

وكان للمؤلف رؤية لمفهوم القرآن الكريم والتراث الإسلامي ومنهج التعامل معهما أسس بها فهمه لمفاهيم ومباحث علوم القرآن الكريم من منطلق القول بتاريخية النص، وأن أساسه الواقع، وبينهما علاقة جدلية، ومن ثم لا مفهوم للنص عنده إلا ما أتى به الواقع، والتراث نتاج الواقع، ومنهج التعامل معهما من خلال ما ينتجه الواقع من أنظمة اقتصادية واجتماعية وسياسية، ويرى أن جعل الواقع هو الأساس لمفهوم النص لا يتعارض مع القول بألوهية النص.

أردت من خلال هذا البحث عرض هذه الرؤية ومناقشتها على موازين البحث العلمي بمنتهى الموضوعية والتجرد، واستخراج أصول فكرنا العلمية وبيان أصالتها ومعقوليتها، وأنها مؤسسة على نظر علمي رصين، وأنها تحتاج إلى تجديد وتطوير؛ لتواكب قضايا العصر.

وظهر من خلال البحث أن المؤلف وقع في مخالفاتٍ علميةٍ ومناقضاتٍ لمقررات العقول، وأن ادعاءاته لم تشفع بأدلتها، وأنه وَهَم في كثير من الحقائق التي أقام عليها منهجه في التعامل مع القرآن الكريم. والنتيجةُ لمنهج الحداثة الذي أراد المؤلف تطبيقه فتحُ باب التلاعب بالنصوص وإضاعة قداستها، وتحريف القرآن عن مواضعه.

منهج البحث: سلكت في دراسة هذا المبحث المنهج النقدي.

كلمات مفتاحية: القرآن - التراث - منهج التعامل - نقد

the foundation for the concept of the text does not contradict the assertion of the divinity of the text.

Through this research, I wanted to present and discuss this vision in accordance with the standards of scientific research with utmost objectivity and detachment, to extract the foundations of our scientific thinking and clarify its authenticity and rationality, indicating that it is based on a sound scientific perspective, and that it requires renewal and development to keep pace with contemporary issues. The research revealed that the author engaged in scientific violations and contradictions to rational conclusions, and that his claims were not supported by adequate evidence, showing that he was mistaken in many of the facts upon which he based his approach to the Quran. The outcome of the modernist approach that the author sought to apply is the opening of the door to the manipulation of texts and the loss of their sanctity, and the distortion of the Quran from its rightful places. Research Methodology: I adopted a critical approach in studying this topic.

Keywords: Quran - Heritage - Method of engagement - Critique.

Research Summary

The Reality of the Holy Qur'an and Heritage, and the Methodology of Dealing with Them, According to Dr. Nasr Hamid Abu Zaid, in His Book: 'The Concept of Text: A Study in the Sciences of the Qur'an' - a Critical Study.

Dr: Abdul Ghaffar Ahmed Abdul Ghaffar Ahmed.

Department of Tafsir and Qur'anic Sciences, Faculty of Fundamentals of Religion and Da'wah in Menoufia.

Email: abdulghafarahmad.adv@azhar.edu.eg.

Abstract :

The research revolves around the study of an individual who adopted modernity theories and believed that applying them in understanding the Holy Qur'an is the necessary renewal to catch up with civilization and eliminate backwardness. This individual is Dr. Nasr Hamid Abu Zaid, in his book: 'The Concept of Text: A Study in the Sciences of the Qur'an' in the introduction titled: 'Religious Discourse and the Scientific Method.'

The author had a vision of the concept of the Holy Quran and Islamic heritage and the methodology of dealing with them, which formed his understanding of the concepts and topics of Quranic sciences based on the historicity of the text, asserting that its foundation is reality, and that there is a dialectical relationship between the two. Thus, he believes that there is no concept of the text except what reality brings forth, and that heritage is a product of reality. The methodology of dealing with both is through what reality produces in terms of economic, social, and political systems. He sees that establishing reality as

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربَّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيِّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصَحْبِهِ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد؛ فبين التقدم والتخلف أسبابٌ من سلكها وصل إلى تحقيق الرخاء والقوة، ومن تركها عاش في ظل التخلف والرجعية. وبين الماضي والحاضر، والأصالة والمعاصرة، والربط بينهما منهجٌ علميٌّ يقوم على فهم الأصول وإدراك الواقع وتنزيل حكم الشريعة عليه، وضابطُ صحة ذلك تحقق مقاصد الشريعة واستقرار المجتمعات.

والغفلة عن هذا المنهج أوقع الناسَ في الإفراط والتفريط؛ فمنهم من ترك التراث واعتبره نتاج عصره ومات بانتهاء عصره وتعامل مع الواقع بلا منهجٍ مُحكمٍ، ومنهم من وقف عند مسائل التراث وعجز عن إدراك تطور الواقع، وتجريد المسائل التي حكم بها العلماء بناءً على زمانٍ ومكانٍ معين مما أدى إلى توقفه عند حدود الاجتهاد القديم.

عندما جهل الأول أن هذا التراث عبارة عن منهجٍ له أصولٌ محكمةٌ قادرةٌ على الإجابة على مستجدات العصر، دفعه إلى الانحلال من أصول الشريعة وما عليه العقل الجمعي رجاء الوصول إلى بناء الحضارة واستعادة أمجاد الماضي معتقداً أن في اقتفاء خطى الغرب هو الحل للخروج من الأزمة التي يعاني منها المسلمون.

ومن هؤلاء الدكتور/ نصر حامد أبو زيد، أصيب بصدمة المعرفة، وتأثر بالنظريات الأدبية، وبنظرية المادية الجدلية، ورأى أنها السبيل الأمثل لفهم حقائق الدين، باعتبار الواقع والحس هو الأصل الذي أنتج النص، ومنه تشكل، وهذا المعنى - من وجهة نظره - غاب عن علماء الدين، حيث لم يبحثوا عن حقيقة القرآن وماهيته.

وحقيقة القرآن - عنده - أنه نص لغوي، ويجب أن يُدرس دراسة أدبية، هذه الدراسة هي الكفيلة بتحقيق وعي علمي، والبحث عن حقيقة القرآن - من وجهة نظره - لا يتم إلا بإعادة قراءة علوم القرآن قراءة جديدة بهذا المنهج لا كما

قرأه الأقدمون ومن تبعهم قراءة التَّكْرَار والترديد فقط، والذي كان منهجهم منهج الجمع والحفظ لا التنقيح، غاب دور العقل بسبب ظروف حضارية أدت إلى عَزْل النص عن سياقه التاريخي، وحوَّله عن كونه نصًّا لغويًا إلى شيء مقدس.

ومن أجل هذا أَلَف الدكتور/ نصر كتابه: «مفهوم النص» ليبحث عن حقيقة وماهية القرآن التي غابت عن علمائنا؛ ليعيد صياغة المفاهيم مرة أخرى صياغة مادية جدلية تحصر النصَّ في الواقع، وتثبت أنه منه تَكُون وتشكُّل، ومنه يُنتج المعرفة والثقافة مرة أخرى.

ولا شك أن ما يقرره المؤلف عبثٌ وجهلٌ بتاريخ العلوم، وانهزامٌ نفسيٍّ أمام الحضارة المادية، وتأليّةٌ للمادة وإعطائها صفة الألوهية، وجعل كل شيء وليد نتائجها، وهو ما تقوله المادية الجدلية (الديالكتيك)، وهي أشهر نظرية قامت عليها المادية الحديثة اليوم.

هدف البحث:

وغرضُ هذا البحث: استخدام المنطق العقلي في إثبات تهافت هذا الفكر، وبيان معقولية العقل الإسلامي الذي استخرج من معين الكتاب والسنة الحقائق واضحة جلية، وبيان أن نظرية المعرفة الإسلامية نظرية متكاملة تُعبّر عن الحقيقة وأن مصدرها متنوع.

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية الموضوع في تناول قضية خطيرة بالبحث والتحقيق من خلال:

١. إبراز مكانة العقل المسلم وبيان أصالته ومعقوليته في فهم الحقائق وتصور المفاهيم.

٢. كشف أصالة منهج علماء المسلمين في التعامل مع الوحي الشريف، وأنه قادرٌ على التعبير عن الحقيقة والوصول إليها.

٣. الرد على أطروحة الدكتور/ نصر حامد أبو زيد، وكشف عوارها وفشلها في تحقيق المفاهيم وتجديد الدين.

أسباب اختيار الموضوع

١. رغبتني في الإسهام بمناقشة هذه الأفكار ودراساتها دراسةً علميةً موضوعية.

٢. اتصال ما كتبه الدكتور/ نصر أبو زيد بتخصصي العلمي الدقيق وتعلقه به، وتناول المؤلف قضايا علوم القرآن مُطبّقاً للنظريات الحداثيّة على مباحث علوم القرآن.

٣. شهرة المؤلف وكتابه، وتأثير الوسط العلمي به، مما أحدث جدلاً علمياً كبيراً في المجتمع المسلم.

إشكالية البحث

يُردُّ البحث على دعاوى الدكتور/ نصر حامد أبو زيد في كتابه: «مفهوم النص دراسة في علوم القرآن»، ويجب على التساؤلات الآتية:

هل القرآن الكريم منتج ثقافي؟ وهل لا وجود للقرآن الكريم إلا في الواقع؟

هل التراث الإسلامي منتج ثقافي وقضايا نسبية انتهت بانتهاء عصرها؟

هل دراسة علماء الأمة لقضايا علوم القرآن كانت استجابة لظروف عصرها

وقامت على الجمع دون الفحص والتحقيق؟

هل المنهج الصحيح في فهم القرآن الكريم هو فهمه في ثقافة المجتمع، فما

ترفضه الثقافة لا يقع في دائرة النصوص؟

حدود البحث:

يدرس البحث الشبهات التي أثارها الدكتور/ نصر حامد أبو زيد في كتابه:

«مفهوم النص دراسة في علوم القرآن» فيما يتعلق بقضية بالتمهيد، وهو

بعنوان: (الخطاب الديني والمنهج العلمي).

صعوبة الموضوع:

واجهتني صعوبات عديدة في دراسة هذا الموضوع منها:

-ارتباط الموضوع بنظريات وفلسفات هي في نفسها غامضة تحتاج إلى وقتٍ

كبير وقراءة واسعة لفهمها والوقوف على حقيقتها، ثم تلخيص الضروري منها

لفهم مسائل البحث.

-تناقض المؤلف في عرض أفكاره مما أحتاج معه إلى تتبع فكره والتدقيق

في كلامه؛ لإثبات هذا التناقض، والتأكد من هذا الفهم الذي وصلت إليه.

الدراسات السابقة:

كثرت الدراسات العلمية المتعلقة بنقد الفكر الحداثي في مجالات متعددة، من حيث الأصول، ومن حيث الأفكار، أما بالنسبة لكتاب: «مفهوم النص دراسة في علوم القرآن»، فلم أقف على دراسات كثيرة إلا الآتي:

١. كتاب مفهوم النص لنصر حامد أبو زيد، دراسة تحليلية نقدية، رسالة ماجستير للباحث/ كمال سكاك، جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة.

وهذه الرسالة تعرضت لدراسة الكتاب دراسة نقدية، لكنها ليست تفصيلية لكل المسائل.

٢. قصة أبو زيد وانحسار العلمانية في جامعة القاهرة، الدكتور/ عبدالصبور شاهين، ط/ دار الاعتصام.

وهو عبارة عن تقارير علمية لبعض العلماء على مؤلفات وفكر الدكتور/ نصر، ومنها تقرير على كتاب: مفهوم النص، للدكتور/ مصطفى الشكعة.

٣. أزمة النصّ في مفهوم النصّ " للدكتورة فريدة زمرد، ولم أقف على الكتاب.

وأما بالنسبة للدراسات التي تعرضت للمؤلف عموماً فكثيرة جداً منها:

١. إشكالية قراءة القرآن في ضوء التاريخية عند نصر حامد أبو زيد، أ/قدور بن فريجة. مجلة التدوين، العدد (١٠)

٢. علما أسباب النزول والمكي والمدني عند نصر حامد أبو زيد، دراسة تحليلية نقدية، لمحمد عبيدة، ط/ مركز تفسير للدراسات القرآنية.

٣. نصر حامد أبو زيد، دراسة النظريات ونقدها، مجموعة من المؤلفين. ط/ المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ٢٠١٩م

٤. تصورات العلمانيين المعاصرين للإسلام من خلال فكر محمد أركون ونصر حامد أبو زيد (دراسة مقارنة نقدية) الباحث/ أحمد السيد عبدالحميد.

(جامعة الأزهر) الرقم الخاص (٢٠٠-١٦)

٥. إشكالية قراءة النص القرآني في الفكر العربي المعاصر: نصر حامد أبو زيد نموذجاً. الباحث: قويسم إلياس، جامعة الزيتونة.

٦. التأويل الحداثي للقرآن الكريم ومنطلقاته مناقشات وردود نصر أبو زيد أنموذجاً، أ.د/ عبدالله موسى محمد أبو المجد، حولية كلية أصول الدين والدعوة بطنطا.

وهو بحث يركز على قضية التأويل عند المؤلف ومنطلقاتها.

ما تفرد به بحثي:

١. هذا البحث يُركز على كتاب «مفهوم النص دراسة في علوم القرآن» وعلى جزئية المنهج الذي خطّه لنفسه في تناول مباحث علوم القرآن.
٢. يبرزُ رؤيته لمفهوم القرآن والتراث ومنهج التعامل معهما، وينقد مرتكزات هذه الرؤية بما يترتب عليه هدم رؤيته الكلية من أساسها، فيبقى بعد ذلك نقد الجزئيات وتسلط الضوء على المغالطات التي اشتملتُ عليها، وهو ما أقوم به - بعون الله- في بحوثٍ أخرى.
٣. ما قمتُ به من ردودٍ في الغالب منه هو مما فتح الله به عليّ، ومن بحثي في بطون الكتب ومن محاولتي استدعاء أصول منهجنا والوقوف على مداركه ومقارنته بما ذهب إليه فكر الحداثة.

منهج البحث:

سلكت في دراسة هذا المبحث **المنهج التحليلي**، وهذا المنهج يشتمل على ثلاث خطوات: التفسير، والنقد، والاستنباط.^(١) وفي هذا البحث أقوم بـ:

١. استخراج الدعاوى التي أوردها المؤلف وتحليلها وتفكيكها، وبيان الأدلة التي استندتُ إليها، والنظريات التي قامتُ عليها، والنتائج التي تؤدي إليها.
٢. نقد هذه الدعاوى وتقويمها، والتحقق من صحتها، والرد على الزائف منها بالمنطق العلمي.

خطة البحث

يتكون البحث من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة، وفهرس المراجع. أما المقدمة فتشتمل على أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وإشكالية

(١) ينظر: مناهج البحث د/ عبدالرحمن بدوي (ص ١٨٨) أبجديات البحث في العلوم

الشرعية، د/ فريد الأنصاري (ص ٩٦ وما بعدها)

البحث، ومنهج البحث، وخطته. وأما التمهيد فيشتمل على مدخل تعريفي:
* بالمؤلف وشرح عنوان الكتاب وفكرته. * ثم عرض موجز بالحدثة
وأهم أفكارها.

* وكذلك تعريف المادية الجدلية.

وأما الفصول فهي كالآتي:

الفصل الأول: نقد دعاوى المؤلف التي أثارها حول مفهوم القرآن، وفيه

مطالب:

المطلب الأول: نقد ادعاء أن البحث في مفهوم النص مفقود في التراث
الإسلامي.

المطلب الثاني: نقد ادعاء أن القرآن منتج ثقافي، ونفي أي وجود للقرآن غير
الوجود الحسي.

المطلب الثالث: نقد ادعاء عدم تناقض القول بأن القرآن منتج ثقافي وأنه
إلهي.

الفصل الثاني: نقد دعاوى المؤلف حول التراث وعلوم القرآن، وفيه

مطالب:

المطلب الأول: نقد دعوى أن التراث منتج ثقافي.

المطلب الثاني: نقد دعوى أن الخطاب الديني المعاصر قام على ترديد ما جاء في كتب
التراث دون وعي.

المطلب الثالث: نقد دعوى أن سبب التأليف في علوم القرآن هو الحفاظ عليه
من الضياع.

الفصل الثالث: نقد دعاوى المؤلف حول منهج التعامل مع القرآن

الكريم، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: نقد ادعاء أن منهج التعامل مع القرآن اعتبار الواقع والثقافة
الأصل.

المطلب الثاني: نقد ادعاء أن المنهج الصحيح هو تطبيق النظريات الأدبية
على القرآن الكريم.

ثم الخاتمة فيها أهم نتائج البحث، ثم فهرس بأهم المصادر والمراجع.

التمهيد

في هذا التمهيد أتعرض لثلاثة أمور مهمة تكشف عن المؤلف والكتاب وبعض المصطلحات المهمة التي تساعد في تصور كلام المؤلف:

(١)

* التعريف بالمؤلف:

نصر حامد أبو زيد أستاذ جامعي مصري، وُلِدَ في قرية قحافة بطنطا في ١٠ يوليو ١٩٤٣م^(١)، ودَرَسَ في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب بجامعة القاهرة، تخرَّجَ عام ١٩٧٢ بتقدير جيد جدًا، وأصبح مُعيدًا في نفس القسم^(٢). ثم قَدَّمَ رسالته للماجستير في «التأويل العقلي عند المعتزلة» عام ١٩٧٦، ورسالته للدكتوراه «فلسفة التأويل، دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي» عام ١٩٨١^(٣).

سافر نصر لبعثتين مهمتين؛ بعثة لأمريكا في منحة من مؤسسة فورد عام ١٩٧٨، وهي فترة مهمة في حياة نصر الفكرية؛ حيث زار فيها عددًا من المكتبات والجامعات، واطَّلَعَ على كثير من مناحي البحث المعاصر في الألسنيات ومناهج تأويل النصوص، كذلك وبسبب موضوع البعثة فقد تعمَّق نصر في قضايا الأدب الشعبي، وله بعض دراسات متفرقة في هذا الأمر، مثل: «الفوازير وظيفتها وبنائها اللغوي»^(٤)، وكذلك مقالة عن «السيرة النبوية كسيرة شعبية»^(٥).

كذلك سافر نصر في بعثة لليابان كأستاذ زائر في جامعة أوساكا، وهناك كَتَبَ أهمَّ كتابين في مسيرته «مفهوم النص، دراسة في علم القرآن» و«نقد

(١) أنا نصر أبو زيد، جمال عمر (ص ١٥)، والكتاب دراسة تحاول المزج بين حياته وأفكاره.

(٢) المرجع السابق (ص ٤٠)

(٣) المرجع السابق (ص ٤٧-٨٧)

(٤) المرجع السابق (ص ٩٩)

(٥) المرجع السابق (ص ٥١-٩١)

الخطاب الديني»^(١).

أثارت كُتبه عددًا كبيرًا من النقاشات والسجلات بل والاتهامات، وتعلّث حدة الأمر بعد تقدّمه بكتبه لنيل درجة الأستاذية في جامعة القاهرة، حيث رُفِضت الترقية، وانتهى الأمر بقضيته إلى المحكمة، فصدر حكم عام ١٩٩٥ من محكمة استئناف القاهرة بالتفريق بينه وبين زوجته دكتورته/ ابتهاج يونس، أستاذ الحضارة الفرنسية ولغاتها وآدابها بكلية الآداب جامعة القاهرة.^(٢) في أعقاب هذا سافر نصر إلى هولندا ليُدْرَس الفكر الإسلامي بجامعة ليدن^(٣)، حاول العودة لجامعة القاهرة مرارًا، لكن الأمر لم يُفلح رغم صدور قرار ترفيقه أستاذًا بالفعل عام ١٩٩٥، لكنّه عاد لمصر مرات؛ قدّم فيها عددًا من المحاضرات المهمة في مكتبة الإسكندرية، وكما زار فيها بلدته قحافة، وثوَّق نصر عام ٢٠١٠ م.^(٤)

* التعريف بالكتاب:

ذهب الدكتور/ نصر حامد أبو زيد إلى أن البحث عن مفهوم النص كما عُنُون لكتابه جانبٌ مفقود في التراث الإسلامي، فبدأ تمهيدَ الكتاب الذي درأت أفكار الكتاب حوله بالتعريف بالقرآن، والتراث، ومنهج فهمه. فالقرآن الكريم- من وجهة نظر المؤلف- نص لغوي، قامت الحضارة الإسلامية على أساس النص من خلال جدل الإنسان مع الواقع. اشتغلت الثقافة الإسلامية بتأويل النص دون تحديد مفهوم النص، يقرر^(٥) أن الشيخ أمين

(١) أنا نصر أبو زيد، جمال عمر (ص ٩٠-٩٢)

(٢) المرجع السابق (ص ٢٠٥)

(٣) المرجع السابق (ص ٢١٥)

(٤) ينظر ترجمته: الخطاب والتأويل، نصر حامد أبو زيد (ص ٢١٥)

وهذا الموقع: <https://tafsir.net/article/٥٠٩٥/nsr-abw-zyd-wtby-t-al-qwl->

al-qr-aany-

awlana-al-ab-ad-as-syasyt-walajtma-yt-lkhtab-nsr-abw-zyd

(٥) مفهوم النص (ص ١٠-١٩)

الخولي قبله^(١) نادى بهذه الحقيقة بأن القرآن نص لغويّ، هو كتاب العربية الأكبر، وأثره الأدبي الخالد.

والسؤال الآن الذي يرد على ذهن القارئ وماذا يعني أن القرآن نص لغوي؟
يوضح المؤلف معنى هذا: بأن القرآن "منتج ثقافي، تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاما"^(٢)، النصوص الدينية نصوص لغوية، واللغة العربية تنتمي إلى بنية ثقافية محددة تمّ صياغة النصوص تبعاً لها^(٣)، ولا تعارض بين ألوهية النص وواقعية محتواه. وقسم المؤلف كتابه "مفهوم النص" إلى أبواب:

١. الباب الأول: «النص في الثقافة (التشكل والتشكيل)» تناول فيه الكلام عن الوحي، والرسول، والمكي والمدني، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ. حاول أن يثبت فيه تشكل النص من الواقع.

٢. والباب الثاني بعنوان: «آليات النص»، بحث الأمور التي تميز النص القرآني عن غيره، وآلياته في إنتاج الدلالة، فتناول فيه الكلام عن: الإعجاز، والمناسبة بين الآيات والسور، والغموض والوضوح، والعام والخاص، والتفسير والتأويل.

(١) نادى بهذه الفكرة في كتابه: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب (ص ٢٢٩) وكتابته: من هدي القرآن (ص ٦ و ٨) ط/ مكتبة الأسرة. والتفسير معالم حياته/منهجه اليوم (ص ٣٤)، يقول في الكتاب الأخير: "وهذا الدرس الأدبي للقرآن في ذلك المستوى الفني دون نظر إلى أي اعتبار ديني هو ما نعتده... والمقصد الأول للتفسير اليوم أدبي محض صرف، غير متأثر بأي اعتبار". فأبو زيد يواصل مسيرة الشيخ أمين الخولي في دعوته إلى التعامل مع القرآن كنص أدبي، والاستفادة من العلوم العصرية في حمل النص عليها، وعلى كل الفالحائيون يعتبرون الشيخ أمين الخولي هو حامل لواء التفسير الأدبي، ومنه ينطلقون في دعوتهم. [يراجع: مفهوم النص والاعتزال المعاصر، بقلم: جابر عصفور (ص ٣٦)]

(٢) مفهوم النص (ص ٢٤)

(٣) أنا نصر أبو زيد (ص ١١١)

٣. وفي الباب الثالث تكلم عن تحويل مفهوم النص ووظيفته: تطرق إلى نقد فكر الإمام أبي حامد الغزالي باعتباره مساهمًا في تقديس مفهوم النص وعزله عن الواقع.

(٢)

الحدثاء فكرة بدأت بغرض التحديث والتنوير والتقدم في الفنون والاقتصاد والاجتماع والسياسة والإدارة، ثائرة على أي سلطة تحول دون عمل العقل، منهجها الحس والتجربة فقط، فهي نزعة تتجاوز الأعراف والفلسفات القائمة طلبًا للتقدم والتغيير نحو الأفضل.^(١)

هي ظاهرة بدأت في الغرب منذ القرن السادس عشر ونمت وتطورت في القرنين التاسع عشر والعشرين، قامت عدة أسباب على قيامها واعتبار ما قبلها هدرًا، منها الاكتشافات العلمية والجغرافية التي هدمت عددًا كبيرًا من القيم التي كانت سائدة في العصر، وقامت على إثرها الثورة الفرنسية (١٧٨٩م) التي حددت العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ثم ثورة على الكنيسة على يد (مارتن لوتر) أدى إلى تقليص دورها وعدم تحكمها في الحياة.^(٢) والبراعم الأولى لفكر الحدثاء رينيه ديكارت، وإيمانويل كانط^(٣)، وتلخيص مراحل الحدثاء فيما يلي:

الأولى: الثورة على النموذج المعرفي، واعتبار المعرفة الحسية هي الأساس، ورفض المنطق الأرسطي وفتح الباب لمنطق جديد قائم على أساس التجربة.

الثانية: اعتماد الليبرالية؛ فالرأسمالية التي تنظر إلى الفرد هي دعامة الاقتصاد، وفي الاجتماع اعتماد العلمانية التي تقوم على فصل الدين عن السياسة، وفي السياسة اعتماد الديمقراطية والتداول السلمي للسلطة، وفي المجال العقدي اعتبار الحرية هي الأساس في اعتناق الإنسان للدين.^(٤)

(١) ينظر: ما بعد الحدثاء، باسم علي خريسان (ص ٤٥)، جدل الحدثاء وما بعد الحدثاء،

إحسان العارضي (ص ٢٦)، موسوعة النظريات الأدبية: د/ نبيل غانم (ص ٢٦٨)

(٢) ينظر: ما بعد الحدثاء، باسم علي خريسان (ص ٢٥)

(٣) المرجع السابق (ص ٣٧)

(٤) ما بعد الحدثاء، باسم علي خريسان (ص ٤٠)

ما بعد الحداثة

لا يوجد تحديد علمي لمفهوم ما بعد الحداثة إلا أنه ارتبط بهذا المفهوم ضرورة التغيير، فنشأت عن هذه المرحلة فلسفات وأفكار على شتى الأصعدة، إنه اتجاه جديد لهدم الحداثة وإنشاء مناهج وأفكار جديدة تواكب المستجدات، والبعض يؤرخ لها من بعد الحرب العالمية الثانية إلى وقتنا الحاضر. (١) وتتسم هذه المرحلة بعاملين: الزمن والأسلوب، فالأول يقتضي التغيير، والثاني يقتضي أن يكون للمرحلة الجديدة طابع خاص. وتقوم على عدة أسس:

- ليس العقل هو المرشد الذي يمكن الوثوق به في بناء الحضارة.
- التحول من تقديس الذات في الفكر الحداثي إلى التجربة. (٢)

ومن النظريات المهمة في الفكر الحداثي: التاريخية:

قامت التاريخية على ربط النص الأدبي بأحداثه التاريخية، فالقوانين التي تحكم حركة التاريخ هي نفسها التي تحكم النص، فالنص شيء والتاريخ شيء آخر، وكل شيء في حيز الإمكان، فالمعاني والأحكام نسبية ولا وجود للمطلق، واستمرت حتى النصف الأول من القرن العشرين (٣) ثم جاءت "التاريخية الجديدة" التي ترى النص والتاريخ شيئاً واحداً (٤) وتتلخص في "إلغاء سلطة النص الأدبي ورفض استقلاليته عن القوة التاريخية والثقافية التي أنتجته من ناحية، وعن الخطابات الأخرى الأدبية وغير الأدبية التي أنتجتها أيضاً القوى التاريخية والثقافية نفسها"، فالفارق بين التاريخية التقليدية والجديدة - وإن اتفقتا على أن النص جزء من التاريخ- رفض الجديدة مفهوم الحقيقة التاريخية وإمكان استعادتها كما هي من خلال قراءة النصوص الأدبية وغير الأدبية،

(١) المرجع السابق (ص ١٩٦)

(٢) المرجع السابق (ص ٩٣)

(٣) ينظر: موسوعة النظريات الأدبية: د/ نبيل غانم (ص ١٣٦) معجم المصطلحات

الفلسفية، د/ مراد وهبه (ص ١٥٥)

(٤) الخروج من النية، د/ عبدالعزيز حمودة (ص ٢٤٩)

فالتاريخ شأنه شأن النص الأدبي متحرك وقابل لأكثر من تفسير. (١)

(٣)

المادية الجدلية (الديالكتيك) (٢)

ومما يجب تقديمه الكلام على نظرية المادية الجدلية، وملخص هذه الفلسفة من منظار الماركسية:

(١) أن المادة أساس الوجود وينبوع الحقائق، والروح والفكر والإحساس من ثمراتها. المادة موجودة وجودًا موضوعيًا مستقلًا عن فكر الإنسان ووعيه، وهي غير متناهية وهي قديمة وأزلية (٣)، فالمادية الماركسية إلحادية تنكر الإله، وتنفي الدين، وتقرر أنه أفيون الشعوب (٤) وتنظر إلى الإنسان نظرة دارونية،

(١) الخروج من التيه (ص ٢٥٧) التاريخية الجديدة والأدب المؤلف: غرينبلات منتروز، غالغر، وآخرون (ص ٧)

(٢) الديالكتيك كلمة يونانية، أصل اشتقاقها من: دياالوج، بمعنى محادثة ومجادلة، مرت بأطوار:

- لم تكن تعدوا منذ نشأتها إلى عهد أفلاطون أن تكون طريقة معينة في المجادلة العلمية تؤكد على أن في المادة قوة ذاتية تحرك ذراتها، وكل شيء يتغير ويجري، فهو في حالة سيروية مستمرة، فالجدلية عند هيرقليط قاصرة على الظواهر الطبيعية، وعند أفلاطون في المحاورة ومنهج البحث.

- إلى أن ظهر هيجل فقرر فكرته عن الوجود والحقيقة، وخلصتها: "أن وجود أي شيء ثمرة الإبداع الفكري"، بيدع الفكر الشيء صورة ومثالا ثم يدفعه إلى الخارج، فيشمل هذا التدبير الإلهي، ولا ينكر الحقيقة الموضوعية الخارجية المستقلة عن وعي الإنسان، ثم تطور المصطلح بعد ذلك على يد كارل ماركس ليذهب إلى عكس ما ذهب إليه هيجل.

يراجع: نقض أوهام المادية الجدلية، الدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي (من ص ١٧ إلى ص ٣٠)، قصة الديالكتيك، د/ مراد وهبه.

(٣) بنظر: نقض أوهام المادية الجدلية، الدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي (ص ٣٨)

(٤) ينظر: نقض أوهام المادية الجدلية لفضيلة العالم الشهيد، الدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي (ص ٣٨)، سقوط الماركسية، وحيد الدين خان (ص ٥٦)

ارتقى مع قوانين الكون حتى وصل إلى ما هو عليه. (١)

(٢) فيما يتعلق **بالحقيقة**، يقر أكثرهم بوجود حقيقة موضوعية لا يتوقف وجودها على الإنسان، أي: ليست وليدة الفكر الإنساني، والسبيل إلى التأكد منها هو التطبيق في الواقع، هو الذي يبين صدقها من عدمه، بينما يرى بعضهم أن الحقيقة ليست إلا حصيلة تجارب البشر، فلا توجد حقيقة مستقلة عن الذات أو البشرية. (٢)

ومن أنكر الحقيقة الموضوعية أنكر الحقيقة المطلقة، ومن أثبتتها أثبت الحقيقة المطلقة، لكنهم ينكرون إمكان الوصول إليها؛ إذ الحصول عليها مرتبط بمعرفة تاريخ الإنسانية كلها، وإلى أن يتم هذا نرضى بالحقائق النسبية. فالحقيقة المطلقة مخفية محجوبة عن عقولنا يعسر الوصول إليها، فهؤلاء مع إيمانهم الشديد بنظريتهم القاطعة في تفسير الكون وطبيعة سيره وتطوره يؤمنون بالحقيقة المطلقة إيماناً يصل إلى نفيها، ولا شك أن هذا الكلام يعود على أصل نظريتهم بالهدم، فكل الأصول والنظريات والقوانين التي أقاموها في دعم فلسفتهم هي أيضاً نسبية لا تلزمنا (٣)

(١) (يراجع: الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي (ص ٧٣)

(٢) (ينظر: نقض أوهام المادية الجدلية الدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي (ص ٤٥- ١٩١)

(٣) (ينظر: نقض أوهام المادية الجدلية الدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي (ص ١٩٣- وما بعدها)

الفصل الأول:

نقد دعاوى المؤلف التي أثارها حول مفهوم القرآن

المطلب الأول

نقد ادعاء أن البحث في مفهوم النص مفقود في التراث الإسلامي

يقول المؤلف: " إنَّ البحث عن مفهوم للنص ليس مجرد رحلة فكرية في التراث، ولكنه فوق ذلك بحث عن البُعد المفقود في هذا التراث، وهو البعد الذي يمكن أن يساعدنا على الاقتراب من صياغة الوعي العلمي بهذا التراث".^(١)

الرد

١. لا أُسَلِّم أن البحث عن مفهوم النص مفقود في التراث الإسلامي، فلم يُقم المؤلف دليلاً على هذه الدعوى.

٢. أعارض هذه الدعوى بأدلة تُنتج نقيض دعواه، فأقول:

قام علماء الإسلام بدراسة القرآن الكريم واستثمار دلالاته في جانب العقيدة والشرعية والتزكية، وقامت علوم الإسلام بدراسة القرآن من كل جوانبه، مما يدل على أن الأمة كشفت عن ماهية هذا الكتاب، ووقفت على حقيقته وجهات إنتاج الدلالة.

أولاً: ماهية القرآن عند علماء الكلام

المتأمل في تراث علماء الإسلام يوقن بعبثية فكر الدكتور/ نصر، وذلك أن علماءنا بذلوا جهداً كبيراً في تحقيق مفهوم وماهية القرآن الكريم، حتى نشأ علمٌ كاملٌ أخذ اسمه بسبب النزاع حول صفة الكلام وتحقيق ثبوت الكلام النفسي لله تعالى الذي نشأ عنه إثبات وجود القرآن الكريم بالكلام النفسي، وأنكره

(١) مفهوم النص (ص ١٠) أنا نصر أبو زيد (ص ٩٧)

المعتزلة، وكثرت المؤلفات حول هذه القضية، وكانت هذه المسألة من أسباب تسمية علم الكلام بهذا الاسم، أليس هذا بحثاً في حقيقة النص؟! (١)

ثانياً: ماهية القرآن عند علماء أصول الفقه.

يُعتبر القرآن الكريم المصدر الأول للتشريع عند علماء المسلمين، وبحث علماء الأصول مفهوم القرآن الكريم، واستخدموا في هذا كل ما وصل إليه العقل البشري في تعريف الأشياء، فطرحوا هذا السؤال: القرآن الكريم عِلْمٌ مُشَخَّص، فهل يُحدّد؟

بعد تحديد المراد بالمشخص عرفوا القرآن، واجتهدوا في الوقوف على أخصّ خصائصه وهي الإعجاز. (٢) واعتنوا بجهة اللفظ؛ لأنه محل الاستنباط، قال العلامة المحلي في شرح جمع الجوامع: " (والمعني به) أي: بالقرآن (هنا) أي: أصول الفقه (اللفظ المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ...)، قال العلامة البناني: " لأن بحثه عن اللفظ؛ لكونه الذي يُستدل به على الأحكام" (٣)

ثالثاً: ماهية القرآن عند علماء النحو

قال الإمام السيوطي في الاقتراح: " أما القرآن فكل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية، سواء كان متواتراً أم أحاداً أم شاذاً " (٤)
فعلماء أصول النحو نظروا إلى القرآن من جهة ما ورد متواتراً أو غير متواتر مما يحتج به في إثبات القواعد النحوية، فالقرآن هو ما ورد متواتراً، أما الشاذ- وهو ما وراء العشرة على الراجح- فهو كخبر الواحد في الاحتجاج. (٥)

رابعاً: ماهية القرآن عند علماء القرآن

بحث علماء القرآن القرآن بحثاً مستفيضاً من حيث النزول والسند والأداء، ومن حيث ألفاظه ومعانيه المُتعلّقة بالألفاظ، والمتعلقة بالأحكام وغير ذلك.

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي (ص ٣٩)

(٢) شرح التلويح على التوضيح، العلامة السعد التفتازاني (٦٣/١)

(٣) حاشية البناني على شرح المحلي، على جمع الجوامع (٢٢٣/١)

(٤) الاقتراح في أصول النحو (ص ٩٦)

(٥) حاشية البناني على شرح المحلي على جمع الجوامع (٢٣١/١)

وحول هذه الأحوال نشأت مباحث علوم القرآن، تكلموا حوله رواية ودراية، ووضعوا القواعد التي تؤصل التعامل مع كتاب الله تعالى، ودونوا كل ما يتعلق بالقرآن الكريم من هذه الدوائر.

ولما عرضت مسألة ترجمة القرآن الكريم إلى غير العربية نظر علماء الأصول والفقهاء وعلماء القرآن الكريم إلى القرآن الكريم وقرروا أنه اسم للنظم والمعنى، ومن ثم لا يقرأ في الصلاة بغير العربية، حيث يخلل نظمته (١).

خامساً: مع تطور العلم الحديث

مع تطور العلم الحديث وظهور نظريات فلسفية جديدة حول الطبيعة والنفس الإنسانية قام الأستاذ مالك بن نبي ببحث حقيقة القرآن في كتابه: «الظاهرة القرآنية» ووضع الأسس العقلية الكاشفة عن روعة وإعجاز هذا الكتاب، وأثبت أن حقائق العلم الثابتة تؤكد على ربانية هذا الكتاب، وأنه يسير مع العلم جنباً إلى جنب (٢).

والحاصل مما سبق- أن المسلمين تفاعلوا مع القرآن الكريم منذ نزوله وفحصوا صفاته وخصائصه، وتناولوه لفظاً ونقشاً واستدللاً، ومن حيث ثبوته متواتراً وأحاداً، واستثمروا دلالاته، وقامت منظومة العلوم الإسلامية حول القرآن الكريم، بما يدل على أن علماء الإسلام وقفوا على حقيقة ومفهوم القرآن الكريم، وفرقوا بين درجات ثبوته وحالها من الاستنباط، ولم يروا ما يراه المؤلف من أن القرآن منتج ثقافي، بل رأوا أنه كلام الله الباهر للعقول، الصالح لكل زمان ومكان، والحاكم والمرشد إلى الحقيقة.

(١) فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت (٨/٢) مع كتاب المستصفي للإمام الغزالي، إتمام الدراية شرح النقاية للإمام السيوطي (ص ١٩١)، كتاب: مسألة ترجمة القرآن لشيخ الإسلام مصطفى صبري.

(٢) (الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي (ص ١٠)

المطلب الثاني

نقد ادعاء أن القرآن منتجٌ ثقافيٌّ، ونفي أيّ وجودٍ للقرآن غير الوجود الحسي

أولاً عرض الدعوى:

يدعي المؤلف أن القرآن منتجٌ ثقافيٌّ، شكّله الواقع في زمان ومكان، وبين النص والواقع علاقة جدلية، فلا مجال للقول بوجود القرآن خارج الواقع؛ حيث يؤدي ذلك إلى فتح الأقوال الخطابية^(١)، ويُعكر الفهم العلمي للنص.

يقول الدكتور/ نصر حامد أبو زيد: "إن النص في حقيقته وجوهره منتجٌ ثقافيٌّ، والمقصود بذلك أنه تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاماً. وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو بديهية ومتفقاً عليها، فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية ويُعكر من ثَمِّ إمكانية الفهم العلمي لظاهرة النص.." ^(٢)

ويقول: "وحين نقول: تشكلت فإننا نقصد وجودها المتعين في الواقع والثقافة بقطع النظر عن أي وجود لهما في العلم الإلهي أو في اللوح المحفوظ" ^(٣)

(١) الدليل الخطابي هو المكون من مقدمات مقبولة أو ظنية.

قال الإمام الغزالي: "المقبولات وهي أمور اعتقدناها بتصديق من أخبرنا بها من جماعة ينقص عددهم عن عدد التواتر، أو شخص واحد تميز عن غيره بعدالة ظاهرة أو علم وافر، كالذي قبلناه من آبائنا وأستاذينا وأئمتنا واستمررنا على اعتقاد، وكأخبار الأحاد في الشرع، فهي تصلح للمقاييس الفقهية دون البراهين العقلية."

وقال: "المظنونات وهي أمور يقع التصديق بها لا على الثبات بل مع خطور إمكان نقيضها بالبال، ولكن النفس إليها أميل." [ينظر: معيار العلم للإمام الغزالي (ص ١٩٧، وص ١٨٥) أيضاً المبهم من معاني السلم في المنطق، الشيخ أحمد الدمنهوري (ص ١٨)]

(٢) ينظر: مفهوم النص للمؤلف (ص ٢٤) الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية

د/ نصر حامد (ص ٦٤)

(٣) ينظر: مفهوم النص للمؤلف (ص ٢٥)

ثانياً: نقد الدعوى

نقد دعوى أن القرآن منتج ثقافي يبدأ من منع ثلاثة أمور:

١. لا أسلم أن القرآن منتج ثقافي تتشكل في الواقع، بل هو المشكل للواقع والمتحكم فيه.
٢. ولا أسلم أنه لا وجود للقرآن إلا في الواقع، بل له وجودات متعددة.
٣. ولا أسلم كذلك أن القول بأن له وجوداً وراء الواقع يلزم منه عدم فهم النص.

خُطتي في إبطال هذا الدعاوي

وفي التدليل على رد هذه الدعاوي لا بد من التعرض لجهود علماء الإسلام في تحقيق ماهية القرآن الكريم، وبيان المنطق العقلي المحكم في التعرف على حقيقة القرآن، ثم بيان الأثر العلمي لهذه الوجودات، وأن الغرض منه تحقيق المفاهيم، وأنه لم يترتب عليه إعاقة فهمه، ثم بحث مقاصد القرآن ومعانيه الكلية وبيان أصالتها وأنها متعالية عن الزمان والمكان، وبهذا تبطل دعوى أن القرآن مُشكل من الواقع.

أولاً: جهود علماء الأمة في تحقيق ماهية القرآن الكريم

بحث علماء المعقول مراتب وجود الأشياء؛ لضبط التصورات والمعاني، فقرروا أن الوجود الخارجي هو الأصيل وعنه تنتقش الصور والمعاني في الأذهان، ثم يُعبر اللفظ عما في الذهن، وتُعبّر الكتابة عن اللفظ، والوجود العيني والذهني لا يختلفان باختلاف الأمم والبلاد بخلاف اللفظ والكتابة.

قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي: "فإن للشيء وجوداً في الأعيان، ثم في الأذهان، ثم في الألفاظ ثم في الكتابة. فالكتابة دالة على اللفظ، واللفظ دال على المعنى الذي في النفس، والذي في النفس هو مثال الموجود في الأعيان، فما لم يكن للشيء ثبوت في نفسه لم يرسم في النفس مثاله، ومهما ارتسم في النفس مثاله فهو العلم به، إذ لا معنى للعلم إلا مثال يحصل في النفس مطابق لما هو مثال له في الحس وهو المعلوم، وما لم يظهر هذا الأثر في النفس لا ينتظم لفظ يدل به على ذلك الأثر، وما لم ينتظم اللفظ الذي ترتب فيه الأصوات والحروف

لا ترسم كتابة للدلالة عليه. والوجود في الأعيان دالتان بالوضع والاصطلاح. (١)

ثم بحث علماء الكلام والقرآن ماهية وحقيقة القرآن الكريم، واستقصوا وجوده فخلص لهم البحث إلى أن القرآن الكريم كلام الله، وكلام الله أصالة هو الكلام النفسي الذي ليس بصوت ولا حرف، وهو قائم بذاته تعالى، ثم له وجود آخر يكشف عن الوجود النفسي ويدل عليه وهو الوجود اللفظي، وقبله الوجود في الذهن، ثم انتقل إلى الكتابة في الألواح فصار له وجود في النقش. وفي هذا يقول حجة الإسلام الغزالي: "وما يطلق عليه اسم القرآن على أربع مراتب: أولها وهي الأصل: وجوده قائما بذات الله- تعالى- يضاهي وجود النار في التنور، والله المثل الأعلى، لكن لا بد من هذه الأمثلة في تفهيم العجزة، والقدم وصف خاص لهذا الوجود، والثانية: وجوده العلمي في أذهاننا عند التعلم قبل أن ننطق بلساننا، ثم وجوده في لساننا بتقطيع أصواتنا، ثم وجوده في الأوراق بالكتابة." (٢)

وقفة مع هذه الوجودات

الأول: وجود القرآن باعتباره كلاماً نفسياً ليس بصوت ولا حرف على خلاف بين السادة الأشاعرة والمعتزلة. (٣)

(١) ينظر: معيار العلم للإمام الغزالي (ص ٧٥)

(٢) ينظر: إجماع العوام عن علم الكلام للإمام الغزالي (ص ١٤٢)، الإنصاف فيما يجب

اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للقاضي أبي بكر الباقلائي (ص ١٠٢)

(٣) أجمع الأنبياء والمرسلون- صلوات الله عليهم أجمعين- على أنه - تعالى- متكلم وتواتر ذلك عنهم، ولا خلاف بين أهل الملة في كونه -تعالى- متكلماً، واختلفوا في تحقيق معنى كلامه، واختلفوا إلى أربع فرق:

(١) فالحنابلة على أن كلامه تعالى بصوت وحرف، وأنها قديمة قائمة بذاته.

(٢) والمعتزلة على أن كلامه تعالى بصوت وحرف، وهو قائم بغيره تعالى، ومعنى أنه متكلم أنه خالق الكلام في غيره.

ورتب العلماء المثبتون لهذا الوجود عدة أمور:
أولها: أنه لا يوصف بالنزول حقيقة؛ لأن النزول من صفات الأجسام،
والقرآن بهذا الوجود ليس جسماً.

وثانيها: عدم الوصف بالإعجاز؛ لأن الإعجاز صفة المنطوق المتحدى به.

الثاني: وجود القرآن باعتباره كلاماً ملفوظاً، وهو الدال على الكلام

النفسي^(١).

ورتب العلماء على هذا الوجود عدة أمور:

(٣) والكرامية على أن كلامه تعالى بصوت وحرف، وهما حادثان قائمان به تعالى، وجوزوا
قيام الحوادث بذاته.

(٤) والسادة الأشاعرة والماتريدية على أنه كلامه تعالى نفسي ليس بصوت وحرف، قائم بنفسه
تعالى، فالخلاف بيننا وبين المعتزلة في إثبات الكلام النفسي ونفيه.

* وإطلاق الكلام حقيقة على الكلام النفسي ومجازاً على الكلام اللفظي؛ لأنه دال عليه، وخير
من توسع في ذكر دلائل إثبات الكلام النفسي، وأنه حقيقة في حق الله والخلق الإمام
الباقلاني في الإنصاف، فارجع إليه.

لينظر: الإنصاف (ص ١٠٢)، الكلام الموثوق في تحقيق أن القرآن كلام الله غير مخلوق

الشيخ محمد إدريس الكاندلوي (ص ٤٣ - إلى ٤٧) الملل والنحل للشهرستاني (٤٥/١)]

(١) قال البرهان الباجوري في شرحه على متن السنوسية (ص ٢٤): "وكما يُطْلَقُ الكلام

على الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى؛ يُطْلَقُ على الألفاظ التي نقرؤها، ومنه قول عائشة:

مَا بَيَّنَّ دَفَّتِي الْمُصْحَفِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، أَي: مخلوق له ليس من تأليف المخلوقين، وقد نصَّ

المصنف وغيره على أن الصفة القديمة مدلولة لذلك، لكن التحقيق: أن القرآن ونحوه كالتوراة

يَدُلُّ على ما تَدُلُّ عليه الصفة القديمة، مثلاً إذا سمعت قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَى﴾

فهت منه النهي عن قربان الزنا، ولو أزيل عنك الحجاب لفهمت من الصفة القديمة هذا

المعنى، فمدلول الكلام اللفظي هو مدلول الكلام النفسي. وإن شئت قلت: هو مثله لتغايرهما

باعتبار الدال، نعم؛ الألفاظ التي نقرؤها تدلُّ على الكلام القديم بطريق الدلالة الالتزامية

العرفية؛ لأن كل من له كلام لفظي؛ لَزِمَ عَرُفًا أن له كلاماً نفسياً، والمولى له كلام لفظي،

بمعنى أنه خَلَقَهُ في اللوح المحفوظ، فيدل عَرُفًا على أن له تعالى كلاماً نفسياً."

أولها: أنه يوصف بالنزول تبعاً لحامله^(١)، **وثانيها:** الوصف بالإعجاز.

والثالث: الوجود في الأذهان والصدور.

وهذا الوجود كرامة لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث من الله عليها بتيسيره للحفظ في الصدور كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧].

والرابع: وجودٌ باعتباره مكتوباً في اللوح المحفوظ وفي الصحف.^(٢)

وترتب على هذا البحث أن تعلق المسلمون بكتاب الله تعالى، وخدموه لفظاً وكتابةً وحفظاً، ونشأت العلوم الخادمة للقرآن الكريم في هذه النواحي. فالاعتبار الأول محل بحث علم أصول الدين، ومحل نظر المتكلم، والثاني هو محل بحث نظر الأصولي؛ إذ به يستدل على الأحكام، ومحل نظر المفسر؛ إذ به تستنبط المعاني. والرابع محل نظر علماء الرسم وعدّ الآي.

إثبات القرآن باعتباره كلاماً نفسياً لم يُعقَ عملية الفهم.

السؤال المهم ما الذي ترتب على إثبات الكلام النفسي عند أهل السنة؟
أولاً: إثبات الكلام النفسي أو وجود القرآن في اللوح المحفوظ لا يتعلق به كبير أثر عند علماء القرآن، ولم يفتح الباب لأقوال خطابية كما ظنّ دعاة الحداثة؛ لأن الوجود اللفظي والكتابي هما اللذان دارت عليهما جهود العلماء فهما واستنباطاً، وإثبات الوجود النفسي ما هو إلا تحقيق للمفاهيم، في حين ركز المؤلف وأقرانه على فكرة المعتزلة في نفي هذا الوجود؛ ليصلوا إلى فكرة البشرية، وتأليه العقل وتنحية النص، مع أن المعتزلة في الحقيقة لم يقولوا هذا.^(٣)

(١) ينظر: حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (١/٣٦٥)

(٢) ينظر: منة المنان في علوم القرآن أ.د/ إبراهيم خليفة (ص ٤١)، الكلام الموثوق في تحقيق أن القرآن كلام الله غير مخلوق الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي (ص ٦٤)

(٣) ينظر: أنا نصر أبو زيد (ص ١١٢)، مفهوم النص والاعتزال المعاصر، بقلم: جابر عصفور (ص ٣٤)

ثانياً: تجلّت قضية إثبات الكلام النفسي بين الأشاعرة والمعتزلة في تحقيق المفاهيم الأصولية، فمثلاً تعريف الأمر والنهي اختلف في تعريفه بناء على إثبات الكلام النفسي الذي هو منشأ التعلق والتكليف، فقالوا: "وحده: اقتضاء فعل غير كف مدلول عليه بغير كف." والقائلون بنفيه قالوا: الأمر عبارة عن اللفظ الطالب للفعل.^(١)

ثم في قضية هل للأمر صيغة تخصه؟، وهل الأمر بالشيء هل هو نهي عن ضده؟ فرّقوا بين الأمر النفسي واللفظي؟ ففي القضية الأولى الخلاف فيها بين علماء الأشاعرة وترتب عليها طريقة التعامل مع صيغة الأمر بين من قال بأنها جملة أو مشتركة، وأما المعتزلة فالأمر وسائر أقسام الكلام لا حقيقة له عندهم إلا العبارات، فلا يتأتى ذلك الخلاف عندهم.^(٢)

وفي القضية الثانية نظر فيها من حيثيتين: من حيث الصيغة فالأمر بالشيء ليس نهياً عن ضده على الأصح، ومن حيث إثبات كلام النفس، ففيها خلاف، ولم يترتب عليها شيء في التخريج الأصولي، ولهذا لم يذكرها الأسنوي في «التمهيد في تخريج الفروع على الأصول».^(٣)

إذاً قضية إثبات الكلام النفسي عند السادة الأشاعرة قضية مهمة، وهي الأساس في التقعيد الأصولي، فالكلام النفسي يسمى خطاباً في الأزل، ويتنوع إلى أمر ونهي وخبر في الأصح^(٤)، وأصل التكليف به واللفظ هو المعبر عنه، أما المعتزلة فتعاملوا مع اللفظ مباشرة من ناحية الاستنباط، والنص عندهم معجز مقدس، متعال عن الزمان والمكان.

(١) ينظر: حاشية البناني على شرح المحلي على جمع الجوامع (١/٣٦٧)

(٢) :تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي (٢/٥٨٣)

(٣) (المستصفى من علم الأصول (١/٨١)

(٤) حاشية البناني على شرح المحلي (١/١٣٨)

ثالثاً: يرى الأستاذ أحمد أمين في «ضحى الإسلام» أن سبب القول بخلق القرآن راجع إلى فكرة التوحيد^(١) عند المعتزلة، وحتى لا يلزم من القول بقدّم القرآن تعدد القدماء، يقول بعد استعراض تاريخ فتنة خلق القرآن: "وبعد، فما هذه المسألة وكيف وصلت إلى ما وصلت إليه؟ وكيف بلّى بها المسلمون هذا البلاء؟ وما الداعي إليها؟ وما وجهة نظر كل فريق؟ وما نتائجها؟ هذه أسئلة تجول في ذهن الباحث؛ لأن المسألة غريبة في بابها، وكانت أشبه بمحكمة التفتيش تمتحن فيها العقائد ويعذب عليها الناس.

أما الداعي لحزب الحكومة من معتزلة وخلفاء، ففي رأبي أن نيتهم حسنة ومقصدهم حميد، فقد رأى المعتزلة من أول أمرهم - من عهد واصل وعمر بن عبيد - أن عقائد الناس قد فسدت ويجب تصحيحها، وفي نظرهم أن التصحيح يجب أن يدور على توحيد الله وعدله، وجرهم القول في التوحيد إلى التوحيد بكل معانيه، ورأوا أن القول بقدّم القرآن تعدد القديم.."^(٢) ومن ثم لا علاقة بمسألة نفي الكلام النفسي والوجود في اللوح المحفوظ للقول بأن القرآن منتج ثقافي، وأنه نشأ في الواقع، بل هي مرتبطة بأصل من أصول المعتزلة التي بنوا عليها فكرهم.

ثانياً: جهود العلماء في تحليل مضمون القرآن الكريم ومقاصده

تأمل علماء القرآن الكريم هذا الكتاب الخالد، وبحثوا جوانبه وحقائقه فوجدوا أنها تتلخص في بناء الإنسان عقيدةً وشريعةً وتزكيةً، تُعرّف الخلق بالخالق، وتنتشر الفضائل والقيم التي تعزز معنى الإنسانية، وأن القرآن الكريم في هذا يقرر ما جاء في الكتب السابقة، ويُصلح ما انطمس من معانيها، ويبلغ بها الدرجة العليا، ومن هنا كان عامّاً وخاتماً لما سبق.

(١) من الأصول الخمسة عند المعتزلة: «التوحيد، والعدل، وجوب الوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف النهي عن المنكر.» وقد شرحها القاضي عبد الجبار في مؤلف خاص.

(٢) ضحى الإسلام، أحمد أمين (١٨٦/٣ وما بعدها)

مقصد القرآن الكريم من تشريعه تقرير وتغيير

فمقصد القرآن الكريم من تشريعه تقريرٌ وتغييرٌ وبلوغ الكمال، فيقرر ما كان من صالح الأحوال بما يتناسب مع تطور البشرية وترقيهم في مدارج الكمال، ويُغير ويُصلح الأحوال الفاسدة بحسب حال الناس، فقد يكون التغيير إلى شدة أو تخفيف، ثم يرتقي بهم إلى أحسن الأحوال، فعلاقة القرآن بالشرائع السابقة تقرير وتغيير وترقٍ، فلم يقف عند حدودها، بل كان له منهجه الخاص في التشريع. (١)

تحليل الدكتور محمد عبدالله دراز لمضامين القرآن الكريم وأثره في بيان أصالة معانيه.

ومن الكتب المهمة التي اعتنت ببيان هذا الجانب المهم كتاب العالم الجليل الدكتور/ محمد عبدالله دارز "مدخل إلى القرآن الكريم" في الباب الثاني الذي بحث مضمون أفكار القرآن الكريم، وأنها تدور حول مظاهر ثلاثة: الديني والخلقي والأدبي، والعلامة هنا قام بعملٍ مُهم وهو بيان موقع القرآن الكريم من هذه المقاصد الثلاث، وكيف أنه انتهج منهجاً خاصاً في تقريرها، فمع أن القرآن الكريم مصدقٌ لما قبله من الشرائع، وأحكامه لا تتنافى مع صريح مستخرجات العقول إلا أن القرآن الكريم له خصوصية وإضافة واضحة تدل على مبدع صاغ هذه المعاني في ثوب معجز باهر وهو الله تعالى.

وأقوم باختصار كلام الإمام حول هذه المظاهر الثلاث مع التعقيب عليها تعقيباً يُظهر لك أصالة معاني القرآن الكريم وربانيتها وتعاليتها عن الزمان والمكان.

١. الحق أو الغنصر الديني.

يقرر المؤلف أن الدين الواحد يقوم على أساس الإيمان بالله متصف بالكمال المطلق، والإيمان باليوم الآخر والبعث، وأن الرسالات السابقة على الإسلام تنبثق تعاليمها من مشكاة واحدة، وأن الحقائق التي تقررها الرسالات الإلهية واحدة بيد أنها أصابها الغمور تحت أنقاض الأفكار المتناقضة، جاء القرآن الكريم وأعاد إليها صفاءها ونقاها من كل شائبة. وأكد على أن حقائق الدين

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (ص ١١٣)

أكمل من حقائق العلم، وأن هذه الحقائق المبنية على المنطق والعقل هي سبب تحول الكفار المعاندين إلى الإسلام، لم يرجع هذا التحول إلى عمل بشري، ولا لذكاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل الفضل في ذلك إلى الحق سبحانه وتعالى الذي أقام صرح القرآن الكريم على حقائق واضحة مقنعة أعادت التصور الحقيقي لمفهوم الإله الذي شوه على مدى زمن كبير، وأثبت بالحجة الفاصلة إمكان البعث الجسدي من خلال النظر في خلق الإنسان، والنظر في حال الأرض الجافة كيف تتحول إلى الإنبات بعد نزول المطر؟^(١)

تعقيب

يَظهر من خلال هذا التقرير الملخص لكلام العلامة أن القرآن في مجال العقيدة مقرر ومُعَيَّر.

- يقرر الحقائق التي جاء بها الرسل من قبل، متفقة مع الفطرة.
- ويُغيّر ما أتى على هذه المعرفة من خطأ وتشويه، ويزيل عن الفطرة ما يغشاها من أوهام، وما يشوبها من شبهات، وما يطمسها من إفك وضلال.
- ثم يختص بأسلوبه البياني الذي يخاطب العقل والوجدان ويقنعه بعقيدته في سهولة ويسر دون تعقيد، ويستخدم في هذا مألوفات الإنسان لينطلق منها إلى الحق.^(٢)

وبهذا يتبين لك أيها القارئ الكريم تهافت الفكر الحداثي الذي يريد جعل مضامين القرآن الكريم وليدة الواقع، ولا شيء وراءه، وهو خطأ؛ حيث إن القرآن الكريم يقوم بتصحيح العقيدة وردها إلى منبعها الأول، ورد أخطاء الواقع، بل والإخبار عما يعجز العقل والحس عن دركه، فأتى للواقع أن يكون له سلطان على القرآن الكريم!؟

٢. الخير أو العنصر الأخلاقي في القرآن

يقرر المؤلف ما يلي:

(١) مدخل إلى القرآن الكريم (ص ٧٥-٨٩)

(٢) العقيدة وبناء الإنسان، أ.د/ عبدالفتاح بركة عضو هيئة كبار العلماء (ص ٦٤)

أولاً: العمل شرطٌ مهم في البناء المعرفي والأخلاقي للإنسان، واعتمد القرآن الكريم على الضمير الأخلاقي في نشر القيم والفضائل والتمييز بين الخير والشر.

ثانياً: القرآن الكريم والكتب السماوية السابقة في تقرير الخير والفضائل ينبعان من مشكاة واحدة، وزاد القرآن عليها تقويم ما خفت وانطمس من معالمها.

ثالثاً: لم يقف القرآن الكريم عند الأخلاق المشتركة بين الشرائع، بل أتمها وأكملها تحقيقاً لغرض البعثة النبوية كما جاء لسان صاحبها: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»^(١)

رابعاً: أضاف القرآن الكريم إلى صرح البناء الأخلاقي معان وقيما جديدة؛ فعلى المستوى الفردي حرم الخمر، وحث على النية التي هي لب العمل الأخلاقي، وعلى مستوى العلاقات بين الأفراد تجاوز ما بُنيت عليه شريعة موسى- عليه السلام- من العدل في التعامل مع الآخرين، وما بُنيت عليه شريعة عيسى- عليه السلام- المحبة، حيث مزج بينهما حتى تكامل بناء الأخلاق؛ فارتقى بالأدب والذوق الاجتماعي والتحشم في المظهر.

وكذلك مزج بين الفضائل الجماعية والفضائل العامة فوسع مفهوم الأخوة لتشمل الأخوة الإنسانية، حيث كانت تقف في شريعة موسى عند حدود جنسهم ثم أزيل في شريعة عيسى، وسما في شريعة القرآن إلى حد احترام الإنسان أياً كانت عقيدته، وحرم الربا مع المسلم وغير المسلم مع الحفاظ على هوية المسلم من الذوبان مع الثقافات الأخرى.

وعلى مستوى المعاملات الدولية سمح الإسلام بإقامة علاقات مع غير الدولة الإسلامية، وأمر باحترام الموائيق، وشرع القتال دفاعاً وردّاً على الاعتداء.^(٢)

(١) حديث صحيح. [ينظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند أبي هريرة، رقم (٨٩٥٢)]

(١٤/٥١٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المؤلف: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي

[٣٤٣/٨]

(٢) (مدخل إلى القرآن الكريم (ص ٩٣- ص ١١٩)

تعقيب

نعم القرآن الكريم هو اللبنة المتممة لصرح بناء الأخلاق، ومهما ارتقت الإنسانية في الآداب والمكارم فلن تزيد على ما جاء في القرآن، وعلى حد تعبير الأستاذ الكبير/ مصطفى صادق الرافعي: "فإن آداب هذا الكتاب الكريم إنما هي آداب الإنسانية المحضة في هذا النوع أنى وجدت وحيث تكون إذا لم يراوغ الناس معنى الإنسانية في أنفسهم" (١)

وهذا الكلام يعني سَبَقَ القرآن الكريم إلى معالي الأمور في كل شيء، وسما على الزمان والمكان؛ ليُشرع أسمى المعاني، وأرقى الفضائل التي تسائر المدنية، بل تسبقها وتعلو عليها، فليس ثمة شيء يقيد معاني القرآن الكريم أو يشكلها بحسب وجوده، بل هو مخزن المعاني والأحكام تفتح على يد العلماء حسب تخصيص الإرادة الإلهية، فأخلاقه ثابتة تلئم كل زمان ومكان.

٣. الجمال أو الجانب الأدبي

وهنا يتكلم عن الدلالة المعبرة عن معانيه، يتكلم عن المظهر بعد الحديث عن اللباب، عن لغة القرآن وبلوغها السمو والجلالة والذروة في الصفاء والقوة على مستوى المادة الصوتية وفي نظمه وكلماته، ووصل إلى النقاء في التعبير إلى درجة الإعجاز.

واسمح لي أن أنقل كلام العلامة الدكتور محمد دراز في هذا الجانب؛ لنفاسته، يقول: "فلغة القرآن مادة صوتية، تبعد عن طراوة لغة أهل الحضر. وخشونة لغة أهل البادية، وتجمع - في تناسق حكيم - بين رقة الأولى وجزالة الثانية، وتحقق السحر المنشود بفضل هذا التوفيق الموسيقي البديع بينهما.

إنها ترتيب في مقاطع الكلمات في نظام أكثر تماسكاً من النثر، وأقل نظاماً من الشعر، يتنوع في خلال الآية الواحدة ليجذب نشاط السامع ويتجانس في آخر الآيات سجعاً، لكي لا يختل الجرس العام للوقوفات في كل سورة.

أما كلماته، فمنتقاة من بين الكلمات المشهورة، دون أن تهبط إلى مستوى الدارج، ومختارة من بين الكلمات السامية، التي لا توصف بالغريب إلا نادراً.

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص ٩٣)

وتمتاز بالإيجاز العجيب في الكلام؛ إذ تعبر بأقل عدد من الكلمات عن أفكار كبيرة يصعب التعبير عنها في العادة إلا بجمل مطولة نسبياً.

ويضاف إلى هذا النقاء في التعبير، وهذا التركيز الشديد في المعنى - حيث لا تقابلنا كلمة زائدة بل اختصار معجز أحياناً - وضوح أخذ، كأنه تحدّ سافر بحيث إن رجل الشارع قليل الحظ من المعرفة، يستطيع أن يقول لنفسه: لقد فهمت جيداً. ومع ذلك نجد العمق والمرونة والإيحاء والإشعاع في كل جانب مثل أوجه قطعة الماس البراقة، إلى درجة أن جميع العلوم والفنون الإسلامية تستمد على الدوام من هذا المصدر قواعدها ومبادئها.

إنها حقيقة مقررة عرفها الناس جميعاً، وهي أن كلا من النبيل والحقير، والسطحي والباحث الدؤوب، يلتقون على فهم القرآن، كأن كل عبارة فيه مفصلة تفصيلاً بما يناسب عقلية كل منهم بحسب درجته في العلم والمعرفة. (١)

تعقيب

أبعد هذا نسمع لكلام من يقول: إن القرآن نص لغوي؟! لقد سما على لغة العرب مقرراً ومغيراً ومضيفاً أيضاً، ترك القرآن أثراً واضحاً في اللغة حيث حفظها من الزوال كما زال غيرها من اللغات، وأضاف إليها معان جديدة، فهناك المعاني اللغوية بحسب الوضع، وهناك المعاني الشرعية، كالصلاة والزكاة والحج، نقلت معاني هذه الألفاظ من اللغة إلى معاني جديدة يستعملها الشرع، وكان للبيئة الجديدة التي صنعها الإسلام ونقل منها العرب من البداوة إلى الحضار أثرٌ واضح في تطور المعاني والعلوم (٢)

ولله در الأستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعي الذي أبان عن هذا المعنى فقرر أن القرآن الكريم صفي اللغة من أكرهاها، وأضاف إليها المعاني الدقيقة وأظهرها ظهوراً عجيباً، ثم يقرر معنى عجيباً لم أره لغيره وهو أن "معاني القرآن الكريم لا يمكن أن تصدر عن عقل قريش"

(١) (مدخل إلى القرآن الكريم (ص ١٢٤ وما بعدها)

(٢) (يراجع: أثر القرآن الكريم في اللغة العربية الشيخ أحمد حسن الباقوري.

فيقول: "فإن اللغة لا تشب عن أطوار أهلها متى كانت من غرائزهم، وإنما تكون على مقدارهم ضعفاً وقوة؛ لأنها صورتهم المتكلمة وهم صورتها المفكرة، فهي ألفاظ معانيهم وهم في الحقيقة معاني ألفاظها؛ ولذلك لا تزيد عليهم ولا ينقصون عنها ما دام رسمهم لم يتغير وما دامت عاداتهم لم تنتقل، فإن سنح لامرئ من أهل النظر أن يستدل في لغة من اللغات على آثار أمتها بنوع من القيافة المعنوية؛ كما يستدل صاحب القيافة النظرية من الأثر في الطريق على مذهب صاحبه لا يخطئه، وعلى بعض صفاته لا يتعدها - فذلك ممكن لا تهن فيه القوة ولا يبلغ به الإعياء، متى هو تقدم فيه بالذهن الثاقب وتعاطاه بالقريحة النافذة؛ لأنه يستظهر من اللغة الصفات على الموصوف، ويجعل المعروف قياساً لغير المعروف.

وأنت إذا صبغت يدك بهذا الفن من القيافة اللغوية، وحاولت أن تستخرج من لغة القرآن ما يصف لك العرب على أخلاقهم وطباعهم ومبلغهم من العلم؛ فإنك تحاول محالاً، وتكابر فيما يأبى عليك وما ليس في الحيلة إليه غير المكابرة" (١) ويؤكد تحت عنوان: "القرآن والعلوم"، أثر القرآن الكريم في نهضة العلم وارتقاء العقل، وأنه وقف من علوم السابقين موقف المهدب والمصحح، ثم أطلق عنان العقل بالبحث والنظر ليصول ويجول ويرتقي إلى كماله المنشود من رسالة الإسلام. (٢)

نعم، إن القرآن الكريم بنى حضارة، وصهر أمماً تتحكم فيهم هويتهم اللغوية، وعاداتهم وبيئتهم في لغة جديدة هي لغة القرآن، وصارت أعز عليهم من لغتهم التي نشأوا عليها، فيها يُصلون ويذكرون الله تعالى، وحوّل أخلاقهم إلى أخلاق القرآن الكريم، ووحدتهم جميعاً على نهج واحد، وكانوا من قبل يتمسكون بالعصبية لا ينقادون لأحد، وعبر - أيضاً - الأستاذ الكبير/ مصطفى صادق الرافعي عن هذا المعنى بعنوان في غاية الإبداع وهو "الجنسية العربية في القرآن" (٣)

(١) ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص ٧٤)

(٢) المرجع السابق (ص ١١٤)

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص ٨٢)

ثالثاً: عود إلى كلام المؤلف

بعد هذه الرحلة العجلى في جهود علماء الأمة في تحقيق مفهوم النص ومضمونه أظنك قد قنعت بأن دعوى تشكل القرآن الكريم من الواقع دعوى مناقضة للحقيقة والواقع، ويبقى أن نقف وقفة مختصرة مع كلامه الذي سقته تحت عنوان الدعوى:

أ. نقد دعوى بداهة تشكل القرآن من الواقع

إذا ثبت أن للقرآن الكريم وجوداً وراء الواقع الخارجي، وأن هذا الوجود لا تأثير له في عملية الاستنباط، فإني أعجب من دعوى المؤلف بداهة تشكل القرآن من الواقع، وبداهة نفي أي وجود له وراء الواقع، وكنت أود من المؤلف أن يذكر لنا أي عقل وافقه على دعوى البداهة؟! بل إن العقل المسلم منذ نزول القرآن إلى اليوم يقر بحاكمية القرآن وتغييره للواقع.

ثم لك أن تعجب- أيضاً- أن المؤلف يقع في مخالفة مقرر عقلي آخر، وهو أنه زعم أن القرآن بعد أن تشكل من الواقع صار يُشكل الواقع^(١)، ويقول آخر متابعاً له: "وكما أن الدين يحاول أن يغير الإنسان فإن الإنسان بدوره يُغير الدين"^(٢) وهذا- كما يقول أهل المعقول- دور^(٣)، والدور محال، حيث يتوقف النص على تشكله من الواقع، ويتوقف الواقع على النص الذي يشكله.

ب. نقد دعوى نفي وجود القرآن في اللوح المحفوظ.

من عقائد المسلمين التي ثبتت بدليل قطعي الثبوت والدلالة وجود اللوح

(١) مفهوم النص (ص ٢٤)

(٢) مفهوم النص والاعتزال المعاصر بقلم: جابر عصفور (ص ٤٣)

(٣) الدور: هو توقف الشيء على ما يتوقف عليه، ويسمى: الدور المصرح، كما يتوقف "أ" على "ب"، وبالعكس، أو بمراتب، ويسمى: الدور المضمّر، كما يتوقف "أ" على "ب"، و "ب" على "ج"، و "ج" على "أ"، والفرق بين الدور وبين تعريف الشيء بنفسه هو أنه في الدور يلزم تقدمه عليها بمرتبتين، إن كان صريحاً، وفي تعريف الشيء بنفسه يلزم تقدمه على نفسه بمرتبة واحدة. ينظر: التعريفات، المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)

المحفوظ^(١) ونص القرآن الكريم على ثبوت القرآن فيه في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿وَلَئِنَّ فِيَّ أَمْرَ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾^(٢) في لَوْجٍ مَحْمُومٍ﴾ [البروج: ٢١ - ٢٢]، والآيات تفيد ثبوت القرآن الكريم في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ، وهو أصل الكتب السماوية، والظرفية حقيقية، حيث لا إشكال في حملها على الحقيقة، ومن ثم تبين أن تهويل المؤلف لا مكان له عند ذوي العقول، فتأمل.

(١) حاشية الباجوري على جوهرة التوحيد (ص ٢٩٦)

المطلب الثالث

نقد ادعاء عدم تناقض القول بأن القرآن منتج ثقافي وأنه إلهي.

يقول المؤلف: "إن ألوهية مصدر النص لا تنفي واقعية محتواه، ولا تنفي من ثم انتماءه إلى ثقافة البشر، إن القرآن يصف نفسه بأنه رسالة، والرسالة تمثل علاقة اتصال بين مرسل ومستقبل من خلال شفرة أو نظام لغوي، ولما كان المرسل في حالة القرآن لا يمكن أن يكون موضعاً للدرس العلمي، فمن الطبيعي أن يكون المدخل العلمي لدرس النص القرآني مدخل الواقع والثقافة، الواقع الذي ينتظم حركة البشر المخاطبين بالنص وينتظم المستقبل الأول للنص وهو الرسول، والثقافة التي تتجسد في اللغة، بهذا المعنى يكون البدء في دراسة النص بالثقافة والواقع بمثابة بدء بالحقائق الإمبيريقية^(١)، ومن تحليل هذه الحقائق يمكن أن نصل إلى فهم علمي لظاهرة النص. إن القول بأن النص منتج ثقافي يكون في هذه الحال قضية بديهية لا تحتاج لإثبات، ومع ذلك فإن هذه القضية تحتاج في ثقافتنا إلى تأكيد متواصل نأمل أن تقوم به هذه الدراسة." (٢)

تحليل هذه الدعوى:

١. القرآن الكريم مصدره إلهي باعتبار الصدور، وبشري باعتبار اللغة، وهو رسالة لها طرفان: المرسل وهو الله ليس موضوعاً للدرس، والمرسل إليه وهو النبي الذي يفهم النص من خلال وسيط اللغة التي تتكون من الواقع والثقافة.

٢. بناء على هذا لا بد من تقديم الواقع بما فيه من أنظمة على النص.

(١) الإمبيريقية Empiricism

هي المذهب الذي يرى أن أصل معرفة هو التجربة، لذى يطلق عليه أحياناً ((المذهب التجريبي)). فالمقولة الأساسية لهذا المذهب هي أن الإنسان لا يمكنه أن يعرف إلا الأشياء التي هي نتيجة مباشرة للملاحظة والملاحظة والتجربة. فينكر المعرفة التي تأتي من طريق الفطرة أو غيرها.

(٢) مفهوم النص للمؤلف (ص ٢٤) أنا نصر أبو زيد (ص ١١١)

ووصف أحد محلي الكتاب (مفهوم النص) بأن منهج المؤلف في هذا منهجٍ وسيط بين من ينفي الصفة الدينية عن القرآن وبين من يثبتها. (١)

الرد:

القول بتشكل مفهوم القرآن من الواقع يلزم منه إبطال ألوهيته، فلا يجتمع تشكل القرآن من الواقع ثم يكون إلهياً؛ لأنه- بكل وضوح- يكون نتاج الواقع الذي شكّله، فأعطاء صفة الألوهية بعد هذا تدليس لا يقبله عاقل، ولا واسطة بينهما أيضاً.

يقول الدكتور/ مصطفى الشكعة: "ومن الواضح بمكان أن تحديد طبيعة النص بأنه منتج ثقافي إبعاد له عن طبيعته الإلهية، وتحتية له عن صفته القدسية، وطعن في صدق منزله، واستهتار بقيمه" (٢) وستأتي مناقشة عبارة للمؤلف تقضي على أي محاولة؛ لإيجاد مخرج له، وهي قوله: "فما ترفضه الثقافة وتنفيه لا يقع في دائرة النصوص، وما تتلقاه الثقافة بوصفه نصاً دالاً فهو كذلك" (٣)

وبناء عليه: كان على المؤلف أن يكون صادقاً مع نفسه وشجاعاً في أن ينفي صفة الوحي والألوهية عن القرآن الكريم؛ إذ منطق العقل يردد الأمر بين أن يكون الواقع هو الأصل والقرآن من تبعاته أو العكس أن القرآن هو الأصل والحاكم والواقع تبع له، أما محاولة الجمع بينهما أو إعطاء الأصالة للواقع فقول بنفي صفة الألوهية عن القرآن بلا شك.

إنّ هذه الدعوى تستلزم محذوراً عقلياً وهو الوقوع في التناقض (٤)، والتناقض حكم من أحكام العقل، حيث قرر أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان.

(١) مفهوم النص والاعتزال المعاصر بقلم: جابر عصفور (ص ٣٥)

(٢) تقرير الدكتور/ مصطفى الشكعة على كتاب مفهوم النص ضمن كتاب: قصة أبوزيد وانحسار العلمانية في جامعة القاهرة (ص ٦٧)

(٣) مفهوم النص، للمؤلف (ص ٢٧)

(٤) من الأحكام الهامة التي سجلها علم المنطق استحالة الجمع بين النقيضين، فلا يجتمعان ولا يرتفعان. أما المنطق الوضعي فلا يرى هذا، وكتب الأستاذ زكي نجيب محمود

فنسبة القرآن إلى مصدر إلهي ومادي معا جمع بين النقيضين، وفيهما عن القرآن رفع لهما، فلم يبق إلا القول بأصالة القرآن وحاكميته على الواقع، فالمؤلف هنا لم يفلح سعيه في رفع التناقض الذي لزمه من جعل النص والواقع في علاقة جدلية، وأن النص معلول للواقع، وإذا بطل هذا ثبت نقيضه وهو أن الواقع مفعول ومعلول للنص.

كتابه (خرافة الميتافيزيقا) ذكر أن هذا القانون ما هو الا مواضعة واصطلاح اصطلح الناس عليه، ولو اصطالحوا على أن النقيضين يجتمعان لساغ ذلك، وصلاح عليه تفكيرهم، واستدل بأقوال بعض الفلاسفة الأوربيين.

ورد عليه الشيخ محمد عرفة في مجلة رسالة الإسلام عدد (٢٥-٢٨) وبين أن قانون التناقض ليس من اختراع أرسطو، بل هو من مسلمات العقول، ومن موافقات الفطر الإنسانية القويمة.

ومعلوم أن مبدأ التناقض والعلية من مقررات العقل المحض، ومن المبادئ الأولى الذهنية، وهي أعمدة المعلومات العقلية الضرورية التي يستحيل خالفها خلافا لما يدعيه الفيلسوف «لوك» وغيره بأنها من أحكام التجربة والحس.

ينظر:: مجلة رسالة الإسلام عدد (٢٥) ص ٢٠، من حصاد الفكر والثقافة بحوث ومقالات ص ٩١، ص ٩٩، ص ١١١. نشرته هيئة كبار العلماء، موقف العقل والعلم من رب العالمين لشيخ الإسلام مصطفى صبري (١١/٢ وما بعدها - ٢٨٧)

الفصل الثاني

نقد دعاوى المؤلف حول التراث وعلوم القرآن

مدخل:

في نظرته إلى التراث يتابع الدكتور/ حسن حنفي، وهنا لا يريد المؤلف لمفهوم التراث إلا أن يكون منتجاً ثقافياً شأنه شأن القرآن الكريم، وحقائقه نسبية تعبر عن واقع ثقافة العصر لا عن حقائق مطلقة، وكذلك علوم القرآن هي استجابة لظروف العصر.

وفي هذا الفصل أناقش الادعاءات الآتية:

الأولى: دعوى أن التراث منتج ثقافي.

الثانية: دعوى أن الخطاب الديني المعاصر قام على ترديد ما جاء في كتب

التراث دون وعي.

الثالثة: نقد دعوى أن سبب التأليف في علوم القرآن هو الحفاظ عليه من

الضياع.

المطلب الأول

نقد دعوى أن التراث منتج ثقافي

قال المؤلف: "إن التراث ليس معطى واحداً، بل هو اتجاهات وتيارات عبرت عن مواقف وقوى اجتماعية وعن أيديولوجيات ورؤى مختلفة. فالتراث إذاً ليس له وجود مستقل عن واقع حي يتغير ويتبدل، يعبر عن روح العصر، وتكوين الجيل، ومرحلة التطور التاريخي. التراث إذاً هو مجموعة التفسيرات التي يعطيها كل جيل بناء على متطلباته، خاصة وأن الأصول الأولى التي صدر منها التراث تسمح بهذا التعدد؛ لأن الواقع هو أساسها الذي تكونت عليه، ليس التراث مجموعة من العقائد النظرية الثابتة والحقائق الدائمة التي لا تتغير،

بل هو مجموع تحقيقات هذه النظريات في ظرف معين، وفي موقف تاريخي محدد، وعند جماعة خاصة تضع رؤيتها، وتكون تصوراتها للعالم." (١)

تحليل الدعوى:

أولاً: هذا الكلام نقله المؤلف من كتاب التراث والتجديد للدكتور/ حسن حنفي، حيث إنه أحال النقل إليه في كتابه: التراث والتجديد (ص ١١).

ثانياً: معنى هذا الكلام أن الواقع مصدر هذا التراث، وهو جزء من الواقع، والتراث يرتبط بالزمان والمكان ارتباطاً عضوياً. (٢)

ثالثاً: في الرد على هذا الكلام لا بد من معرفة مكونات التراث، وقبله أصل مدارك الأحكام، وأثر الزمان والمكان في التشريع؛ لنعرف الثابت والمتغير في الأحكام، فإذا ثبت أن في القرآن معاني مطلقة لا تقبل التغير سقطت الدعوى. وفي بيان هذا أقول:

١. التراث: نص ومنهج ومسائل:

(أ) لا أسلم بأن التراث ليس له وجودٌ مستقل عن الحس والواقع، بل له وجود مستقل عن الحس والواقع بحسب مكوناته الثابتة الأصلية.

(ب) التحليل اللغوي (٣) والمنطقي لكلمة التراث يكشف أنه مكون من: «نصٌّ ومنهجٍ ومسائل.»

(١) مفهوم النص (ص ١٦)، أنا نصر أبو زيد (ص ٨٨-١١١)

(٢) التراث والتجديد، لفضيلة الإمام الأكبر، الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب (ص ٣٥)

(٣) كلمة التراث والميراث أصلها الفعل ورث، تدور معاني الفعل ورث في اللغة حول أن يكون الشيء لقوم ثم يصير إلى آخرين بنسب أو سبب، كما في مقاييس اللغة (١٠٥/٦) وهو مختص بالمال حقيقة ويستعمل في غيره مجازاً كما ذكر الإمام الزمخشري في الأساس (ص ١٠١٣). واستعمل في القرآن والسنة على انتقال الماديات والمعنويات كالعلم والأخلاق. (مفردات الألفاظ للراغب مادة ورث).

أما في الاصطلاح فيطلق على كل ما هو معنوي مما تركه السلف للخلف من علوم وثقافات وفنون وعادات، وعليه فالكتاب والسنة ومنهج الفهم يصح أن يطلق عليهم لفظ التراث، مع

وبيان ذلك أن أصل مدارك الأحكام القرآن الكريم، والسنة بيان له، والإجماع لا ينعقد إلا مؤسساً على نصٍّ منهما، والقياس مبني على وجود علة الحكم الثابت بالنص في شيء آخر عار عن نص يبين حكمه؛ ليتعدى الحكم من هذا الأصل المنصوص إلى الشيء الذي لا نص فيه على حكم، وهذه المدارك التي تنشئ الأحكام متفق عليها بين علماء الأمة، ووراء هذا مدارك أخرى في المذاهب الأربعة محل خلاف بينهم.^(١)

وهذه المصادر لها منهج في التعامل مع النصوص ثبوتاً ودلالة، وهذا المنهج أفرز بحسب الواقع مسائل كانت نتاج التفاعل مع المصادر.

٢. أثر الزمان والمكان في أحكام الشريعة والتراث:

يجب أن نقرر حقائق مهمة عن التشريعات الدينية:

أولاً: أن التشريعات الدينية لا تقف عند حدود عالم الشهادة، بل تمتد إلى عالم الغيب، فإيماننا بالغيب أول طريق الهداية والفلاح، كما دل على ذلك صدر سورة البقرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ آيَاتِ الْكِتَابِ لَا تُغْنِي عَنْكَ الْغَنَى وَالْكَثْرَةُ وَلَئِنْ كُنْتُمْ إِلَّا قَوْمٌ يَلْعَبُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٣] فمحاولة إقصاء مفهوم الغيب^(٢) عن التشريع الإسلامي انحرافٌ فكري، وهو أصل الزيغ في الفكر الحدائثي، وإن أولى سمات البحث العلمي الإسلامي اعتبار عالم الغيب والشهادة، والجوانب الروحية في الإنسان.

الفارق المعتبر بين النص الديني والمنتج الفكري الناشئ عنه، وهذا الفارق أهمله الفكر العلماني؛ إذ كل ما هو تراث عنده قابل للنقد والاختيار.

[التراث والمعاصرة، د. أكرم ضياء العمري (ص ٢٧-٢٩)]

(١) (يراجع: فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت (٣/٢) الأزهر والتجديد (ص ٢٤٤)،

دراسات عن القرآن الكريم بقلم الشيخ محمود شلتوت (ص ٣٩)

(٢) الغيب هو "الخفي الذي لا يدركه الحس ولا تقتضيه بديهة العقل، وهو قسمان: قسم لا دليل عليه وهو المعني بقوله تعالى: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) وقسم نصب عليه دليل، كالصانع وصفاته واليوم الآخر وأحواله"

يراجع: تفسير البضاوي بحاشية الشهاب الخفاجي (١/٣٣٥)

ثانياً: في التشريع الإسلامي عناصر ثابتة خالدة لا تتأثر بالزمان والمكان، كما دل على هذا قول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، فدلالة الآية تؤكد بكل وضوح على أن في الدين حقائق مشتركة بين الشرائع تُقرر في كل زمان ومكان، غير قابلة للتغيير، بل يدل على ذلك حديث القرآن الكريم كثيراً على أن ما جاء به رسولنا صلى الله عليه وسلم مصدق لما في الكتب السابقة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] يؤكد على أن في الدين حقائق ثابتة مقررة في كل كتاب ومع كل رسول، وهذا في الحقيقة من شواهد صدق القرآن الكريم، ومن أسباب إعجازه أن جعل هنالك معاني ثابتة مقررة يتأسس عليها هوية الإنسان في كل زمان ومكان، ووراءها معاني متغيرة مؤسسة على رعاية عنصر الزمان والمكان.

ثالثاً: نصوص الشرائع الدينية نصوص مقدسة لا يمكن تغييرها، وإنما تقبل التفسير بحسب دلالتها التي أسس لها علماء الأمة نقلاً عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لا حسب الزمان والمكان، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، أسند البيان إليه صلى الله عليه وسلم فيتبع سبيله فيه، وهذا الإسناد نفهم منه أن منهج الفهم محدد ومؤصل ومعلوم معلومية النص ذاته، ونفهم منه قضية التخصصية في القيام بالبيان، حيث جعل مبين ومبين له، وتأتي منطقة الفكر في تطبيق المنهج وتنزيله على الواقع. (١)

وعلى هذا فالتراث الإسلامي نص مقدس لا يتغير، وأحكام تتنوع إلى قسمين:

الأول: الأحكام القطعية التي قام الدليل على أنها ثابتة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان، وهي تُصنف إلى ثلاثة أقسام:

(١) (يراجع كتاب: الأزهر والتجديد (ص ٣٧٤)

١. **العقائد القطعية** التي يجب الإيمان بها؛ لقيام الدليل اليقيني في ثبوته ودلالته عليها، وهي أصول العقائد من الإيمان بالله ورسله وكتبه والبعث... إلخ، فأصول العقائد لا تأثر للبُعد الزماني أو المكاني فيها، فلا تقبل التغيير.
٢. **الأحكام العملية** التي جاء بها الدين بصورة واضحة قاطعة، مثل أصول الشريعة كوجوب الصلاة والزكاة وصوم رمضان والحج... إلخ.
٣. **القواعد الكلية** التي أخذت من الشريعة بنص واضح بلا معارضة دليل، وعُلم من الشرع بعد الاستقراء التام، مثل القواعد الخمس التي ترجع إليها أحكام الشريعة، وهي الأمور بقاصدها... إلخ. (١)
- القسم الثاني:** أحكام ونظريات لم تُردّ بدليل قاطع في دلالتها فكانت محلاً لاختلاف الفهوم والأنظار، فهذه محل الاجتهاد، يأخذ منها العالم بحسب ما يترجح له، وهي تُصنف إلى ثلاثة أقسام:
- القسم الأول:** **في جانب المعارف الكلامية**، مثل: مسألة الصفات الخيرية (٢) هل تفوض معانيها أو تؤول؟، وفي رؤية الله تعالى في الآخرة... إلخ.

(١) قال القاضي الحسين: مبنى الفقه على أربع قواعد: اليقين لا يزال بالشك، والضرر يزال، والعادة محكمة، والمشقة تجلب التيسير. قال بعضهم: والأمر بمقاصدها ونظمها بعضهم فقال:

خَمْسُ مُقَرَّرَةٍ قَوَاعِدُ مَذْهَبٍ لِلشَّافِعِيِّ بِهَا تَكُونُ خَيْرًا
ضَرَرٌ يُزَالُ وَعَادَةٌ قَدْ حُكِمَتْ وَكَذَا الْمَشَقَّةُ تَجْلِبُ التَّيْسِيرَ
وَالشَّكُّ لَا تَرْفَعُ بِهِ مُنَيقًا وَالنِّيَّةُ أَخْلَصُ إِنْ قَصَدَتْ أُمُورًا

ينظر: حاشية البيجرمي على الإقناع للخطيب الشربيني (١٩٦/١)

(٢) هي الصفات التي ورد الخبر بثبوتها، ويقول **الشهرستاني** في الملل والنحل: "اعلم أن جماعة كبيرة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعزة والعظمة ولا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً، وكذلك يثبتون صفات خبرية مثل اليدين والوجه ولا يؤولون ذلك إلا أنهم يقولون: هذه الصفات قد وردت في الشرع

القسم الثاني: الأحكام العملية، مثل: مقدر مسح الرأس في الوضوء^(١)، وفي مقدار الرضاع المحرّم.. الخ.

القسم الثالث: القواعد الأصولية أو الفقهية، مثل: هل تنسخ السنة القرآن؟ وهل يُنسخ القرآن بالقياس؟^(٢)

فهذه الجوانب تقبل الاجتهاد والتغيير في حدود احتمال الدلالة، وتوفر المجتهد، وليس معنى تغييرها أن الأول باطل أو مرفوض، بل هو في محل الاجتهاد بحسب ما يترجح للعالم.^(٣) وبناء على هذا البيان ننتهي إلى النتائج الآتية:

فنسميها صفات خيرية"، ويقرر شيخنا العلامة الأستاذ الدكتور/ إبراهيم خليفة رحمه الله أنها ذات خصيصتين:

الأولى: أن العقل لا يوجب اتصافه تعالى بشيء منها، بمعنى أنه لا تتوقف ألْبنة عند العقل على ثبوت من تلك الصفات إلهيته سبحانه. **والثانية:** أنا لا نعلم من حقائقها اللغوية إلا أبعاضاً أو أعراضاً جسمانية أو وجدانية نفسية محدثة لا يليق بالرب جل وعلا.

يراجع: الملل والنحل، الشهرستاني (١/٩٢) ، الدخيل في التفسير، الأستاذ الدكتور/ إبراهيم خليفة (ص ١٦٥)

(١) قال الله تعالى: **چ پ ت** چ المائدة: ٦، في هذه الآية الكريمة خلاف فقهي نشأ من تحديد المراد بمسح الرأس، هل يُحمل على ما أقل ما يصدق عليه اسم المسح أو المعنى الكامل لمفهوم المسح؟ وتدخلت الباءُ بمعانيها المتعددة لتوسع الاحتمالات المرادة، فتحتمل التبويض وهو مؤيد لحمل المسح على أقل ما يصدق عليه، وتحتمل الإلصاق وهو مرجح لمن حمل المسح على كماله، وكان للفعل النبوي مدخلٌ مهم للترجيح حيث ورد عنه ﷺ المسح على الناصية وعلى العمامة، ومسح كل الرأس، فهذه أسباب الخلاف.

(٢) يراجع الخلاف في هذه المسائل: جمع الجوامع بشرح العلامة المحلي (٢/٧٨-٨٠)

(٣) يراجع كتاب: الأزهر والتجديد، مقال: الدعوة إلى التجديد الديني الشيخ محمد المدني

(ص ٤٠٧) بحوث ومقالات، سليمان دنيا (ص ١٠٥) الإسلام ومتطلبات التغيير الاجتماعي،

الطبطبائي (ص ٣٧)

الأولى: لا مفرّ من إثبات الحقيقة المطلقة الثابتة في كل زمان ومكان، ولا يمكن نسخها أو تغييرها؛ لأنها من أصول العقائد أو من أصول الإسلام، وأنها من مقتضيات الفطرة والطبيعة الإنسانية، تتلاءم مع الإنسان من حيث هو إنسان.

الثانية: من الشريعة أحكام تقبل التغير، تبعًا لظروف المكان والزمان، وتختلف بحسب طبائع البشر، ويناظر بالعلماء والحكام اختيار ما يلاءم حالهم.

الثالثة: جعل الشريعة بأكملها نسبية وقضايا التراث تختلف باختلاف العصر- كما يدعي المؤلف- يلزم منه نتائج خطيرة، وهي:

١. فتح باب العبيثة بكل معاني الدين والقيم، وقتل الجانب الروحي في الإنسان.

٢. تذبذب الأحكام، وفتح باب التلاعب بالنصوص، وإضاعة قداستها، وتحريف القرآن عن مواضعه.

المطلب الثاني

نقد دعوى أن الخطاب الديني المعاصر قام على ترديد ما جاء في كتب التراث دون وعي

قال المؤلف: "إن موقف الخطاب الديني المعاصر من علوم القرآن ومن علوم الحديث كذلك هو موقف التردد والتكرار، إذ يتصور كثير من علمائنا أن هذين النمطين من العلوم يقعان في دائرة العلوم التي نضجت واحترقت حتى لم يعد فيها للخلف ما يضيفه إلى السلف. ولم يقرأ علمائنا هؤلاء - وهم ينقلون عن السيوطي - قوله: العلوم وإن كثر عددها، وانتشر في الخافقين مددها فغايتها بحر قعره لا يدرك، ونهايتها طود شامخ لا يستطيع إلى ذروته أن يسلك. ولهذا يفتح لعالم بعد آخر من الأبواب ما لم يتطرق إليه من المتقدمين الأسباب. لذلك نرى أكثرهم ينقلون عن السيوطي ما خف فهمه على الناشئة والطلاب، فالغاية عندهم ليست التأليف والجمع - وهو نهج القدماء - ناهيك أن يكون البحث والتنقيب، بل الغاية كل الغاية تسهيل الكتب القديمة بسلبها كل ميزاتها طلباً للكسب والشهرة." (١)

الرد

يدّعي المؤلف أن الخطاب الديني المعاصر قصارى أمره أن يردد ما قاله السابقون؛ لأنهم يعتقدون أن علوم القرآن والتفسير من العلوم التي نضجت واحترقت، وغاية ما قاموا به تسهيل كتب التراث على الطلبة. وهذا الكلام في غاية الخطأ؛ لأمر:

أولاً: أن علماء المسلمين قديماً وحديثاً يعتقدون أن دائرة علم التفسير وعلوم القرآن من الدوائر التي لم تنضج ولم تحترق.

قال العلامة الزركشي: " (فَائِدَةٌ) كَانَ بَعْضُ الْمَشَايخ يَقُولُ: الْعُلُومُ ثَلَاثَةٌ: عِلْمٌ نَضِجٌ وَمَا احْتَرَقَ وَهُوَ عِلْمُ الْأُصُولِ وَالنَّحْوِ، وَعِلْمٌ لَا نَضِجَ وَلَا احْتَرَقَ وَهُوَ

(١) ينظر: مفهوم النص (ص ١٠)

عِلْمُ الْبَيَانِ وَالتَّفْسِيرِ، وَعِلْمُ نَضِجٍ وَاحْتَرَقَ، وَهُوَ عِلْمُ الْفَقْهِ وَالْحَدِيثِ. (١)
 وسبب ذلك كما قال الشيخ أحمد بن محمد مكي الحموي الحنفي (المتوفى: ١٠٩٨ هـ): "وَأَمَّا عِلْمُ التَّفْسِيرِ فَلِأَنَّهُ لَا غَايَةَ لَهُ يُوقَفُ عَلَيْهَا، وَمَنْ أَمَعَنَ النَّظَرَ فِيهِ ظَهَرَ لَهُ ذَلِكَ؛ إِذْ مَوْضُوعُهُ فَهْمُ مَرَادِ اللَّهِ- تَعَالَى- مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى وَوُجُوهُ الْإِعْجَازِ وَمَوَاقِعُ الْمُنَاسِبَاتِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُحِيطُ بِهِ إِلَّا عَلَامُ الْغُيُوبِ، فَكَيْفَ يُوقَفُ لَهُ عَلَى غَايَةٍ؟ بَلْ إِنَّمَا يُعْطَى الشَّخْصُ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ الْإِلْهَامِ الْإِلَهِيِّ وَهُوَ لَا يَقِفُ عِنْدَ غَايَةٍ حَيْثُ لَا يَتَّعَدَى إِلَى غَيْرِهَا، وَمَنْ وَقَفَ عَلَى كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَتَأَمَّلَهَا ظَهَرَ لَهُ ذَلِكَ". (٢)

فهذا نقل المؤلف عن أحد المعاصرين من قال: إن علم التفسير نضج واحترق؟!

بل إن الشيخ أمين الخولي الذي يقتفي المؤلف أثره يقرر بأن علم التفسير لم ينضج ولم يحترق، ويتخذ من هذا أساساً لتجديد هذا العلم. (٣) فهذه مغالطة كبيرة من المؤلف.

ثانياً: أن دائرة البحث في علوم القرآن لا زالت مستمرة وتضيف إليه الجديد المبهر، وقائمة على الابتكار والإبداع، ومن أمثلة هذا:

١. ما قام الأستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعي الذي أضاف إلى علوم القرآن بحوثاً مهمة في لغته وظواهرها تؤكد على إعجاز القرآن الكريم، وإضاف بحسه البلاغي مباحث ومصطلحات جديدة لم يقف عليها الأقدمون، مثل: «مصطلح الجنسية العربية»، وأثبت جلال القرآن الكريم وهيمنته على قلوب كل من دخل في الإسلام عرباً وعجماء، وصارت العربية أعزّ عليهم من نفوسهم (٤)، وتكلم عما سكنت عنه علماء الإعجاز، إلى ما أفاض به في تعريف

(١) (المنثور في القواعد الفقهية، لبدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي

(المتوفى: ٧٩٤ هـ) (١/٧٢)

(٢) ينظر: غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، لشهاب الدين أحمد بن محمد

مكي الحسيني الحموي (٤/١٣٠)

(٣) ينظر: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب (ص ٢٢٩)

(٤) ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص ٨٢)

القرآن بطريقة أدبية عالية، إلى جانب تناوله لبعض مسائل علوم القرآن، مثل: مسألة المعرب، وغريب القرآن، ووجود الزائد في القرآن، مما عده علماء الأمة إضافة جديدة وعبرية في الدراسات القرآنية.

٢. وما قام به الأستاذ الدكتور/ محمد عبدالله دارز في كتابه: «النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم»، والأستاذ مالك بن نبي في كتابه: «الظاهرة القرآنية» من إثبات أن القرآن الكريم من عند الله تعالى في ضوء تطور العلم الحديث وما وصلت إليه البشرية من معارف، فلم تحدث لهما صدمة معرفية في ظل كشف العلم، بل وجدا الأسس العقلية في إثبات أن القرآن الكريم من عند الله، وإذا كان العلماء قديما وصلوا إلى ربوبية القرآن من ناحية لغته، فإن العلم الحديث يتفق مع مقررات القرآن الكريم ويكشف عن جلاله.

ومن يطالع هذين الكتابين النفيسين سيجد جهدا وعبرية في تناول الأفكار وشرحها والتعليق عليها، وأنقل لكم كلام الدكتور/ محمد عبدالله دارز وهو يخط منهجه في أول الكتاب فيقول: "فهذه بحوث في القرآن الكريم، قدمتها بين يدي دروس التفسير لطلبة كلية أصول الدين بالجامع الأزهر المعمور، أردت أن أنعت كتاب الله بحليته وخصائصه، وأن أرفع النقاب عن جانب من الحقائق المتصلة به، وأن أرسم الخطة التي ينبغي سلوكها في دراسته. وقد راعيت في أكثر هذه البحوث شيئا من التفصيل والتحليل، وشيئا من التطبيق والتمثيل، فلم أكتف بالإشارة حيث تمكن العبارة، ولا بالبرهان إذا أمكن العيان، راجيا بذلك أن تنفتح لها عيون الغافلين؛ فيجدوا نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وأن تنشرح بها صدور المؤمنين، فيزدادوا إيمانا إلى إيمانهم." (١)

تفصيل وتحليل، تطبيق وتمثيل، النظر الطويل والتأمل العميق، والإفصاح عن الحقائق وإظهارها عيانا وعبرة ما أمكن ذلك.

ثم اقرأ كلمة الأستاذ محمود محمد شاكر وهو يصف منهج الأستاذ مالك بن نبي في بحثه عن الظاهرة القرآنية، فيقول: " وهذا المنهج الذي سلكه مالك، منهج يستمد أصوله من تأمل طويل في طبيعة النفس الإنسانية، وفي غريزة التدين في فطرة البشر، وفي تاريخ المذاهب والعقائد التي توسم بالتناقض

أحياناً، ولكنها تكشف عن مستور التدين في كل إنسان، ثم هو يستمد أصوله من الفحص الدائب في تاريخ النبوة وخصائصها، ثم في سيرة رسول الله، بأبي هو وأمي، منذ نشأته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى، ثم في هذا البلاغ الذي جاء ليكون بنفسه دليلاً على صدق نفسه، أنه كلام الله المفارق لكلام البشر من جميع نواحيه .. (١)

فهذا الكتابُ الباحثُ في حقيقة القرآن الكريم ومدى إعجازه، وصل الباحث إلى هذه النتيجة بعد تأمل طويل في طبيعة النفس الإنسانية، وفي غريزة التدين في فطرة البشر، وفي تاريخ المذاهب والعقائد وبعد الفحص الدائب في تاريخ النبوة وخصائصها، ثم في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣. وما قام به الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في كتابه البديع: «التحرير والتنوير» من مقدمة وضع أسسا وأصولا مهمة في التفسير، وأضاف إلى التفسير أقوالاً جديدة ظهرت له، بل جعل هدفه من التفسير الإضافة الجديدة إلى جانب الدراسة والنقد لمن سبقه فيقول: "فجعلتُ حقاً عليّ أن أبدي في تفسير القرآن نكتاً لم أر من سبقني إليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وآونة عليها" (٢)

فالشيخ العلامة محمد الطاهر يجعل خطة عمله وغايته الإبداع والبحث عن الجديد، فأين دعوى المؤلف من هذه الشواهد القليلة من كثير، التي تدل بوضوح على أن موقف علماء الأمة دائماً ممن سبقهم الفهم والإفادة، والإبداع، والنقد والإضافة؟!

ثالثاً: أن ما قام به علماء العصر من تسهيل كتب التراث على طلبة العلم فهذا مما يحسب لهم لا عليهم، وهو واجب العلماء في مراعاة اختلاف الزمان، وفوارق العقول، وتسهيل العلوم بلغة تراعي حال المخاطب ومستواه العلمي.

(١) الظاهرة القرآنية (ص ١٨)

(٢) التحرير والتنوير (٧/١)

المطلب الثالث

نقد دعوى أن سبب التأليف في علوم القرآن هو الحفاظ عليه من الضياع.

قال المؤلف: "إن التحدي الحضاري والاجتماعي والثقافي الذي تواجهه أمتنا اليوم يختلف عن ذلك التحدي الذي كان يواجهها منذ سبعة قرون أو أكثر حين كتب الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) البرهان في علوم القرآن، أو حين كتب السيوطي (ت: ٩١٠ هـ) الإتيان في علوم القرآن كان التحدي الذي واجههما الحفاظ على الذاكرة الحضارية للأمة على ثقافتها وفكرها في مواجهة الزحف الصليبي الغربي، وعلى ذلك كانت هذه المصنفات في علوم القرآن وفي علوم الحديث ابن الصلاح، ت (٦٤٣) بمثابة محاولة لجمع هذا التراث المتنوع في مجال النص الديني وتيسير تناوله على القارئ والطالب، كانت محاولة لتركيز العلوم واختصارها بحيث يمكن استيعابها بأقل جهد وفي وقت أقل.. (١)"

مفاد هذا الادعاء:

أن الأمة انشغلت بجمع التراث وما يتعلق به خوفاً عليه من الضياع، ولم يقوموا بالبحث عن مفهوم النص، بل وقفوا عند علومه مما أدى إلى الاهتمام بعلوم النص، وعزل النص عن واقعه، وتحويله من نص لغوي إلى نص مقدس.

الرد:

أولاً: هلا أقام المؤلف على هذه الدعوى دليلاً، أم أنه كالعادة يطرح الدعوى مجردة عن دليلاً، ويجب على القارئ أن يصدقه ويقتنع بأن التراث وعلوم القرآن جمعها العلماء حفاظاً عليها من الضياع.

ثانياً: لا أسلم هذه الدعوى، وأدعو القارئ الكريم أن يراجع الكتب التي أحال عليها المؤلف؛ ليقف بنفسه على حقيقة هذه الدعوى.

١. الإمام الزركشي

من يطالع مقدمة كتاب البرهان يجد بوضوح حقيقتين في غاية الأهمية:

(١) مفهوم النص (ص ١١ وما بعدها)

الحقيقة الأولى: أن الإمام الزركشي من أول الأمر ينص على دور العقل والقرائح في التأليف في علوم القرآن، فيقول: "فإن أول ما أعملت فيه القرائح وعلقت به الأفكار اللواحق فحص عن أسرار التنزيل والكشف عن حقائق التأويل الذي تقوم به المعالم وتثبت الدعائم"^(١)

الحقيقة الثانية: السبب الداعي إلى تأليف الكتاب حاجة المكتبة الإسلامية إلى كتاب يشتمل على أصول التفسير ومصطلحاته كما فعل في علم الحديث، وأنه في هذا التأليف جمع ما قاله العلماء من نكت التفسير، وضمنه من المعاني البديعة التي تبهر العقول.

قال الإمام الزركشي: "ولما كانت علوم القرآن لا تنحصر ومعانيه لا تُستقصى وجبت العناية بالقدر الممكن، ومما فات المتقدمين وضع كتاب يشتمل على أنواع علومه، وكما وضع الناس ذلك بالنسبة إلى علم الحديث، فاستخرت الله تعالى - وله الحمد - في وضع كتاب في ذلك جامع لما تكلم الناس في فنونه وخاضوا في نكته وعيونه، وضمنته من المعاني الأنيفة والحكم الرشيقة ما يهز القلوب طرباً ويبهر العقول عجباً"^(٢)

٢. الإمام السيوطي

كان نفس الداعي الذي حمل الإمام السيوطي على التأليف في علوم القرآن هو أنه لم يقف على مؤلف في علوم القرآن نظير ما حدث في علم الحديث، فوقف على كتاب لشيخه جلال الدين البلقيني^(٣)، ثم تابعه بكتاب «التحبير» الذي زاد فيه علوماً على شيخه.

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/١)

(٢) البرهان في علوم القرآن (٩/١)

(٣) هو عبد الرحمن بن عمر بن رسلان بن نصير، قاضي القضاة جلال الدين أبو الفضل ابن شيخ الإسلام سراج الدين، البلقيني الشافعي. مولده بالقاهرة في جمادى الأولى سنة اثنتين وستين وسبعمائة، وكان رحمه الله إماماً بارعاً، مفنناً، فقيهاً، نحويّاً، أصولياً، مفسراً، عارفاً بالفقه ودقائقه، ذكياً، مستحضرّاً لفروع مذهبه، مستقيم الذهن، جيد القصور، حافظاً، فصيحاً، بليغاً، توفي سنة أربع وعشرين وثمانمائة.

راجع: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، المؤلف: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله

الظاهري الحنفي، (المتوفى: ٨٧٤هـ) (١٩٧/٧)

يقول الإمام السيوطي: "فظهر لي استخراج أنواع لم يسبق إليها وزيادة مهمات لم يستوف الكلام عليها فجردت الهمة إلى وضع كتاب في هذا العلم وأجمع به -إن شاء الله تعالى- شوارده، وأضم إليه فوائده، وأنظم في سلكه فرائده؛ لأكون في إيجاد هذا العلم ثاني اثنين وواحد في جمع الشتيت منه كألف أو كآلافين ومصيرا فني التفسير والحديث في استكمال التقاسيم إلفين" (١)

ثم بكتاب «الإتقان في علوم القرآن» الذي حرر وزاد وأدمج بعض البحوث في بعض، فلم تكن المسألة مسألة جمع وحفاظ على التراث، بل ابتكار وإبداع وإتقان، ويذكر الداعي إلى تأليف كتاب الإتقان فيقول: " فوضعت هذا الكتاب العلي الشأن الجلي البرهان الكثير الفوائد والإتقان، ورتبت أنواعه ترتيبا أنسب من ترتيب البرهان، وأدمجت بعض الأنواع في بعض، وفصلت ما حقه أن يبين وزدته على ما فيه من الفوائد والفرائد والقواعد والشوارد ما يشنف الأذان، وسميته بالإتقان في علوم القرآن، وسترى في كل نوع منه- إن شاء الله تعالى- ما يصلح أن يكون بالتصنيف مفردا، وستروى من مناهله العذبة ربا لا ظمأ بعده أبدا" (٢)

وينبغي أن أقرر للقارئ الكريم أمرا مهما في فلسفة التأليف عند العلماء وغرضهم في التصنيف، قد يكون غرضهم مجرد الجمع تمهيدا للفحص والتنقيح، كما فعل حجة الإسلام الغزالي في دراسته للفلاسفة جمع وشرح في كتاب «مقاصد الفلاسفة»، ورد ونقض في كتاب «تهافت الفلاسفة»، فليس الجمع مقصودا لذاته، وليس هذا المنهج هو الغالب، بل القليل، وفي هذا يقولون: "ولا ينبغي لحصيف يتصدى لتصنيف أن يعدل عن غرضين: إما أن يخترع معنى، أو يبتدع وضعا ومبنى، وما سوى هذين الوجهين فهو تسويد الورق، والتحلي بحلية السرقة" (٣)

(١) التحبير في علوم التفسير (ص ٢٩)

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١٧/١)

(٣) الفوائد المكية، فيما يحتاجه طلبة الشافعية من المسائل والضوابط والقواعد الكلية،

الشيخ علوي بن أحمد السقاف (ص ٣٦)

هذا هو الغرض الأسمى من التأليف أن يأتي بجديد، أو يبدع في الوضع والتحرير، وما عدا ذلك لا فائدة منه، بل أزيد أن الإمام الكبير الزركشي له ثلاث كتب في الأصول، أولها «البحر المحيط في أصول الفقه»، وثانيها: «تشنيف المسامع»، وثالثها: «سلاسل الذهب في أصول الفقه»، وكان له في كل كتاب منهجٌ ومقصدٌ وإبداعٌ عجيب، أما الكتاب الأول فغرضه الجمع والإحاطة بمسائل أصول الفقه، ووفى بهذا المقصد، وأما الثاني فشرح كتابا مهما في علم الأصول وهو جمع الجوامع مع التحقيق والتحرير، والثالث: بحث علم الأصول من حيث بيان مادة أصول الفقه، ومن المعلوم أهمية معرفة موارد واستمداد العلم.

وإذا تركنا دائرة العلوم الشرعية إلى العلوم العقلية، علم الجبر والمقابلة (١) - مثلا- نجد نفس الهدف والمقصد، فيقول محمد بن موسى الخوارزمي: " ولم تزل العلماء في الأزمنة الخالية والأمم الماضية يكتبون الكتب مما يصنفون من صنوف العلم ووجوه الحكمة نظراً لمن بعدهم واحتساباً للأجر بقدر الطاقة ورجاء أن يلحقهم من أجر ذلك وذخره وذكره ويبقى لهم من لسان الصدق ما يصغر في جنبه كثير مما كانوا يتكلفونه من المؤونة يحملونه على أنفسهم من المشقة في كشف أسرار العلم وغامضه. إما رجلٌ سبق إلى ما لم يكن مستخرجاً قبله فورثه من بعده. وإما رجلٌ شرح مما أبقي الأولون ما كان مستغلقاً فأوضح طريقه وسهّل مسلكه وقرب مأخذه، وإما رجل وجد في بعض الكتب خلافاً شاعره وأقام أدده وأحسن الظن بصاحبه غير راد عليه ولا مفتخر بذلك من فعل نفسه " (٢)

فهذا هو حال أمة الإسلام في التصنيف هو الإفادة والإبداع والإصلاح والتيسير، وهذا على مستوى علوم المعقول والمنقول.

ثالثاً: لا أسلم أن التأليف في علوم القرآن نشأ عنه عزل النص عن واقعه وسياقه كما يقول المؤلف: " لكن هذه العمليات - على أهميتها من الوجهة

(١) هو من فروع علم الحساب، وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم

المفروض، إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك. [مقدمة ابن خلدون (ص ٤٦٧)]

(٢) (الجبر والمقابلة، محمد بن موسى الخوارزمي (ص ٢١)

الثقافية- كانت تتم من منطلق تصور ديني للنص صاغته اتجاهات الفكر الرجعي في تيار الثقافة العربية الإسلامية، وهو تصور أقل ما يقال عنه الآن: إنه تصور يعزل النص عن سياق ظروفه الموضوعية التاريخية، بحيث يتباعد به عن طبيعته الأصلية بوصفه نصا لغوياً، ويحوّله إلى شيء له قداسته^(١) لأن علماء القرآن أقاموا علم أسباب النزول من أجل فهم الظروف والملابسات التي أحاطت بالنص لا أنها هي المكونة للنص كما يرى المؤلف، وتتنظر في الواقع الجديد لتُنزل عليه النص وفق آليات الاجتهاد لا وفق ما يقرره الواقع، هذا هو الفارق بين ما تراه جدلية المؤلف وجدلية علماء القرآن، نعم يثبتون للقرآن قداسة، ويُعظمون شأنه دون أن يحول هذا على فهمهم لحقيقة القرآن الكريم وهداياته.

الفصل الثالث

نقد دعاوى المؤلف حول منهج التعامل مع القرآن الكريم

مدخل:

انطلاقاً من رؤية المؤلف للقرآن الكريم وأنه "منتج ثقافي" فإن المنهج عند المؤلف هو التحليل اللغوي للنص، ويرفض أيّ منهج يقوم على عدم اعتبار القرآن منتجاً ثقافياً أو الإيمان بأيّ وجودٍ له بعيداً عن الواقع، العلاقة بين النص والواقع كما يقول علاقة جدلية^(١) وبناءً عليه فإن المناهج الأخرى (يقصد عند علماء المسلمين) لا بد من تجاوزها، واعتماد المدخل اللغوي، ويقوم على عدة أمور:

أولاً: الأصل هو الواقع، ومن الواقع تشكل النص، فلا بد من الانطلاق من الواقع إلى النص لا العكس كما يفعل أصحاب المناهج الأخرى، يبدؤون من المثالي إلى الحس، والمراد بالواقع كل ما تنتجه الثقافة من أنظمة اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية.

ثانياً: تطبيق مناهج النظريات الأدبية على القرآن الكريم، والمعيار هي الثقافة، فما ترفضه الثقافة وتنفيه لا يقع في دائرة النص.

وفي هذا الفصل أناقش هذه الدعاوى في مطلبين:

المطلب الأول: نقد ادعاء أن منهج التعامل مع القرآن اعتبار الواقع والثقافة الأصل.

المطلب الثاني: نقد ادعاء أن المنهج الصحيح هو تطبيق النظريات الأدبية على القرآن الكريم.

(١) مفهوم النص ص ٢٥

المطلب الأول

نقد ادعاء أن منهج التعامل مع القرآن اعتبار الواقع والثقافة الأصل

قال المؤلف: "إن اختيار منهج التحليل اللغوي في فهم النص والوصول إلى مفهوم عنه ليس اختياراً عشوائياً نابغاً من التردد بين مناهج عديدة متاحة، بل الأحرى القول إنه المنهج الوحيد الممكن من حيث تلاؤمه مع موضوع الدرس ومادته. إن موضوع الدرس هو الإسلام، ولا خلاف بين علماء الأمة على خلاف مناهجهم واتجاهاتهم قديماً وحديثاً أن الإسلام يقوم على أصليين هما «القرآن» و«الحديث النبوي الصحيح»، هذه حقيقة لا يمكن التشكيك في سلامتها. الحقيقة الثانية التي لا يمكن التشكيك في سلامتها كذلك: أن هذه النصوص لم تُلقَ كاملة ونهائية في لحظة واحدة، بل هي نصوص لغوية تشكلت خلال فترة زادت على العشرين عاماً. وحين نقول: تشكلت فإننا نقصد وجودها المتعين في الواقع والثقافة بقطع النظر عن أي وجود سابق لهما في العلم الإلهي أو في اللوح المحفوظ..، وإذا كانت هذه النصوص قد تشكلت في الواقع والثقافة فإن كليهما دوراً في تشكيل هذه النصوص.

ولعل الحديث عن دور الواقع والثقافة في تشكيل هذه النصوص يمثل نقطة الانفصال، وربما التدابر، بين منهج هذه الدراسة وبين المناهج الأخرى التي يتبناها الخطاب الديني المعاصر عند مناقشة مثل هذه القضايا حيث تعطي الأولوية عند مناقشة النصوص الدينية للحديث عن الله عز وجل قائل (النص) ثم يلي ذلك الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم (المستقبل الأول للنص)، ثم يلي ذلك الحديث عن الواقع تحت عناوين أسباب النزول» و«المكي والمدني» و«الناسخ والمنسوخ». إن مثل هذا المنهج - إن اكتملت له أدوات البحث المنهجي من الدقة والاستقصاء - بمثابة دياكتيك هابط في حين أن منهج هذه الدراسة بمثابة دياكتيك صاعد. وعلى حين يبدأ المنهج الأول من المطلق

والمثالي^(١) في حركة هابطة إلى الحسي والمتعين فان المنهج الثاني يبدأ من الحسي والعيني صعوداً، يبدأ من الحقائق والبديهيات ليصل إلى المجهول ويكشف عما هو خفي.^(٢)

تحليل الدعوى:

هذا الكلام يتلخص في نقطتين:

النقطة الأولى: أن المؤلف يُسلم بأن القرآن والسنة هما أصل الإسلام، وهي حقيقة مؤكدة لا يُشكك فيها، وكذلك لا يمكن التشكيك في تَكُون الكتاب والسنة من الواقع في مدة تزيد على العشرين عاماً.

النقطة الثانية: وهي مبنية على الأولى وهي أنه إذا كان الواقع هو أساس القرآن، فلا بد في فهمه من البدء بالواقع وصولاً إلى النص، وهو ما تقتضيه الجدلية المادية، أما الخطاب الديني عكس الأمر.

خطتي في رد النقطتين:

إثبات أصالة الفكر والنص على الواقع، وأن النص حاكم لا محكوم، وبهذا تبطل الدعوى.

(١) المثالي اصطلاح فلسفي فني يرجع إلى كلمة مثال (Idia) ومعناها اللغوي الحرفي النموذج الأصل، وقصد أفلاطون بهذا التعبير نوعاً من الموجودات لا تُرى بالمشاهدة في العيان، ولكنها موجودة على سبيل الحقيقة وراء هذه المشاهد، تدرك بالعقل والنظر، وتطورت فيما بعد إلى كل ما وراء المشاهد في الكون من المعاني العامة والقيم والمبادئ.

والواقع اصطلاح فني آخر عُرف في فلسفة الإغريق باسم المادة، ونُسب المذهب القائم على اعتبار المادة الفيلسوف اليوناني (بروتاجوراس)، وفي عصر النهضة الأوروبية يوم ساد البحث الطبيعي عُرف بأنه الموجود الذي يخضع للملاحظة والتجربة. [يراجع: الإنسان

دين الإنسانية، أ.د/ محمد البهي (ص ٧٠).]

(٢) مفهوم النص (ص ٢٥ وما بعدها)

الرد:

أولاً: النص هو الأصل والحاكم، والواقع هو المحكوم عليه.

لا أسلم بأن الواقع هو الأصل ومنه تكوّن النص، والمؤلف يريد منا أن نحمل ما في الواقع (من أنظمة وأفكار) على النص كما صرح به، وكما تقرره المادية الجدلية التي لا تؤمن بما وراء المادة من غيب، فلا إله ولا وجود إلا المحسوس. وليس لي القارئ الكريم أن أرجع إلى تراثنا وأخص «علم الكلام» في أول مبحث من مباحثه؟ لنرى ماذا يمثل الوجود والواقع في مرآة العقل المسلم؟ وكذلك ما يمثله الواقع في منظور العلم التجريبي والفلسفة، فأقول:

١. الواقع من منظور الدين والفلسفة:

إن مبحث "الوجود" من المباحث الفلسفية والكلامية المهمة التي صدر بها الفلاسفة وعلماء الكلام كلامهم وصاغوا فيها رؤيتهم لنشأة العالم وكيفية صدوره عن الله تعالى. بحث علماءنا "الوجود" وبينوا أنواعه وأحكامه انطلاقاً من تصوير القرآن الكريم والسنة النبوية له، فقرروا أن الواقع الخارجي العيني من خلق الله تعالى^(١)، وأن وجود هذا الواقع حقيقي وثابت، والعلم به متحقق، وهذا الواقع يؤكد قدرة الله- تعالى- على الخلق والإيجاد.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنَّهُ يَفْعَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]

(١) يطلق الوجود على معنيين، الأول: المعنى المصدري العقلي، وهذا تصويره بديهي، والتعريف له بالكون والتحقق والشئئية بديهي، الثاني: الكون في الأعيان، وهو معنى حقيقي. فيطلق أحياناً ويراد به مفهومه، ويطلق ويراد به الماصدق.

راجع: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين لشيخ الإسلام/ مصطفى صبري

وقال صلى الله عليه وسلم : «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء»^(١) **فالأواقع** الخارجي له وجوده الذي حصل بالإرادة والقدرة الإلهية، وانطلق علماؤنا من هذا يبحثون الوجود بناء على هذه الرؤية، بخلاف فلاسفة اليونان كان بحثهم للوجود من خلال مقولات ذهنية، فتصوروا العالم على أنه قديم، وأن المادة قديمة^(٢)

وكان حديث علماء الكلام عن "الشيء" تدقيقاً مهماً لتصوير الموجودات، فالمعدوم -عندهم- ليس بشيء^(٣)، فالعالم قبل إيجاده لم يكن شيئاً، بل عدماً، وهذه المسألة لها أثرها في تصور العالم، ترتب على تحقيقها القول بقديم العالم أو حدوثه^(٤)

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب (وكان عرشه على الماء) رقم (٧٤١٨)
(١٢٤/٩)

(٢) في تصور الفلاسفة لنشأة العالم لا يتصورون وجود العالم من العدم، فيقولون بتكوّن الأشياء من الهولي (المادة) والصورة، وهذه المادة ليس لها صفات مطلقاً (لا شكل ولا حجم ولا وزن) وإنما تأخذ صفاتها من الصورة، وقبل أن تأخذ صفاتها من الصورة لم تكن شيئاً يمكن وصفه وتحديده، فقبل تلقي الصورة كانت شيئاً بالقوة. ولا شك أن هذا كلام خيالي، وغير مفهوم ولا معقول.

انظر: تهافت الفلاسفة للإمام الغزالي (ص ١١) شرح المواقف للسيد الشريف الجرجاني (٣٣/٧)، تقريب المرام في شرح تهذيب الكلام (١/٨٨)، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، نديم الجسر (ص ٤٣ وما بعدها)

(٣) ينظر: تقريب المرام في شرح تهذيب الكلام (١/٥٣) إشارات المرام من عبارات الإمام العلامة كمال الدين أحمد البياضي الحنفي (ص ١١٣)

(٤) (يراجع: أصالة المفكر المسلم، د/ فوقيّة حسين (من ص ٢٥ إلى ص ٣١)

والحاصل أن مبحث "الأمر العامة" (١) الذي يُصدر به علماء الكلام كلامهم هو بناء مهم في تشييد رؤية علماء الإسلام للوجود، وبناء القوانين العقلية في إثبات وجود الله تعالى، والرد على مذاهب الفلاسفة التي ضلت في معرفة الوجود وحقيقة العالم.

ومن هذه الرؤية يتبين أن الوجود والواقع مخلوق لله تعالى، وأن العالم بما فيه من آثار القدرة الإلهية، صدر عن الله تعالى باختيار وإرادة، وهذا الوجود لم يؤثر في الإرادة الإلهية، بل الوجود كله تحت قبضة القدرة الإلهية. وإذا كانت هذه حقيقة الوجود، كذلك الإنسان في المنظور القرآني حقيقة مستقلة عن الوجود، وأشرف ما فيه الروح لا الجسم، وجسمه تابع لروحه لا العكس، ويسمو بشرف عقله وروحه لا جسده، وأسمى ما في الإسلام الأخلاق والقيم، فهي غايته العظمى.

فالقول بأن الواقع أثر في القرآن الكريم وشكله جهالةً بحقيقة الواقع والوجود، وبصفات الله تعالى الكمالية، وتعلق بأذيال الفلاسفة.

٢. الواقع من المنظور العلمي

والنظر إلى العالم في سياق العلم بمعنى (التحقيق) يتجه إلى ثلاثة أمور:

[معرفة الأجزاء، والغرض، والاختبار]

فإذا وقف العالم على ظاهرة فيه بحث أجزاءها، وبعد البحث يفرض فرضيةً ما في ذهنه، ثم يختبرها فإذا أيدتها التجربة تصبح قاعدة عنده، وبالرغم من أن العلم التجريبي دقيق وواضح إلا أنه محدود وسطحي يقف أمام الأجزاء فقط، حتى إذا اتسع العلم اكتشف أنه يقف أمام نقطة صغيرة من كل، وسيظل يكتشف عللاً وأسباباً إلى ما لا نهاية، ومن ثم فإن عالم الواقع لا يمكن للتجربة أن تقف على حقيقته الكاملة والكلية؛ لأن بحثه في الجزئيات، ومن ثم لا بد من مصدر آخر محيط يعطي المعرفة التامة الكلية وهو الشرع الحنيف (٢).

(١) المقصود بها الأمور والأحوال المشتركة بين أقسام الموجود الثلاثة، كالوجود والعلية.

[ينظر: شرح المواقف للسيد الشريف (٥٩/٢)]

(٢) ينظر: العلم ومتطلبات العصر، مرتضى مطهري (ص ٤٠٩)

٣. الواقع من المنظور الفقهي:

هذا ما يتعلق بالنظر الأصولي لمنطلق المسألة، وعلى مستوى العمل الفقهي أشير إلى أمرين:

الأول: أن مما تتميز به شريعة الإسلام عن غيرها صلاحيتها لكل زمان ومكان بسبب اشتمالها المبادئ الثابتة والأحكام الموقوتة والأحكام المربوطة بالأعراف والظروف الخاصة بخلاف المسيحية واليهودية؛ فإن الأولى تقوم على الأخلاق وتصفية النفوس، والثانية وإن اشتملت على تشريعات فهي خاصة ببيئة وزمان معين. (١)

الثاني: معلوم أن الفقه يساير الواقع ويُجيب على نوازله من خلال أدلة الشريعة والأصول الموضوعية لفهم الشريعة، فالأصول هي الحاكمة للواقع، ومن معيها يُستخرج الحكم الشرعي، وعندما نقول: إن الحكم يتغير بتغير الواقع، ليس معناه تأثير الواقع في الشريعة، بل المعنى أن الحكم الذي روعي في بناءه الواقع والعرف فإن المنطق العقلي يقضي بتغير الحكم تبعاً للعرف الذي بُني عليه، وكذلك الحكم الذي ارتبط بعلة فإنه يثبت عند وجود العلة ويتغير عند عدمها. (٢)

(١) المدخل الفقهي العام، مصطفى الزرقا (٢٩/١)

(٢) وأحيل القارئ الكريم إلى كتاب مهم للشيخ الكبير الأستاذ/ محمد المدني، عضو هيئة كبار العلماء وهو كتاب: تاريخ الفقه الإسلامي في مصر، ويختتمه ببحث نفيس عن سبب وجود المذهب الجديد للإمام الشافعي بمصر مستعرضاً رأي الأستاذ/ أحمد أمين، الذي يرجع السبب إلى تأثر الإمام بالمكان وهو مصر، وأخذ البعض يردد تغير الفقه بتغير المكان والواقع، ورجح الشيخ محمد المدني خطأ هذا الرأي بعدة أمور:

أولاً: أن الإمام الشافعي جاء إلى مصر بعد أن تكونت ثقافته الفقهية، وأنه لم يعيش في مصر أكثر من أربع سنين.

ثانياً: أن من يراجع مذهبه الجديد يرى أن سبب عدوله عن بعض المسائل لا علاقة له ببيئة مصر، بل بظهور بعض الأدلة لم تظهر له، ومثل هذا لا ينسب إلى البيئة.

وتحقيقاً للمفاهيم وتدقيقاً للأمر لا يمكن أن نعتبر العدول عن حكم ما ارتبط
بعرفٍ أو علةٍ تغييراً، بل هو من قبيل تحقيق المناط. (١)

ثانياً: من خصائص لغة القرآن الكريم المثالية.

يتهم المؤلف منهج علماء الأمة بأنه منهجٌ ينزع إلى المطلق والمثالي حين لم
يبدأ في التعامل مع النص بالواقع وما توحىه الثقافة، فيقول: "ولعل الحديث عن
دور الواقع والثقافة في تشكيل هذه النصوص يمثل نقطة الانفصال، وربما
التدابير، بين منهج هذه الدراسة وبين المناهج الأخرى التي يتبناها الخطاب
الديني المعاصر عند مناقشة مثل هذه القضايا حيث تعطى الأولوية عند مناقشة
النصوص الدينية للحديث عن الله عزّ وجلّ قائل (النص) ثم يلي ذلك الحديث
عن النبي صلى الله عليه وسلم (المستقبل الأول للنص، ثم يلي ذلك الحديث عن
الواقع تحت عناوين أسباب النزول» و«المكي والمدني» و«الناسخ
والمنسوخ. إن مثل هذا المنهج - إن اكتملت له أدوات البحث المنهجي من
الدقة والاستقصاء - بمثابة دياكتيك هابط في حين أن منهج هذه الدراسة
بمثابة دياكتيك صاعد. (٢)

ثالثاً: التأثير الذي سببه العرف والحالات الاجتماعية لا يوجد في المذهب الجديد، ولو سلم
وجوده فالاختلاف الذي أساسه العرف لا يعد اختلافاً على الحقيقة. أهـ ملخصاً
وفي الحقيقة أميل إلى هذا الرأي لا سيما وأن علماء الأصول ينصون على المسائل التي
تختلف بسبب العرف قليلة جداً، ومن ثم فأثر العرف في تغيير الأحكام ليس بشيء.
ليراجع: تاريخ الفقه الإسلامي في مصر (ص ١١٩)

(١) تحقيق المناط عملية مركبة من الوقوف على النص ومعرفة الحكم وما يتعلق به من
أسباب وشروط وموانع ثم تنزيل الحكم على الواقع، والتحقق من وجود الأسباب والشروط
وانتقاء الموانع في الواقع الجديد.

ينظر: الغيث الهامع شرح جمع الجوامع، لولي الله أبي زرة (٣/ ٧٣٦) حاشية الشيخ

العتار على المحلي (٢/ ٣٣٨)

(٢) مفهوم النص (ص ٢٦ وما بعدها)

وما قرره المؤلف يتفق مع مقررات المادية الجدلية التي سبق بيانها في التمهيد، ويتناقض مع حقيقة اللغة العربية لغة القرآن التي من سماتها المثالية لا المادية، وهذه المثالية من أهم خصائص المنهج ولا تعيبه في شيء، بل هي نابعة من خصائص اللغة العربية التي تأتي الألفاظ تعكس ما في الذهن، وأقول: بحث علماء اللغة خصائص اللغة العربية فوجدوا أن من أهم خصائصها «المثالية» فالفكر هو المقياس التي تقاس به الأشياء، وعالم الحس تابع لعالم الفكر، وهذا تشهد له اللغة العربية التي تقرر أن وضع الألفاظ إنما هو للدلالة على المعاني الذهنية لا الخارجية، وتصور الأشياء إنما يكون في المرتبة الأولى في الذهن وعليها تترتب الوجودات الأخرى، وانتهى إلى هذا كبار الفلاسفة قديما وحديثا. (١)

(١) وفي تفصيل هذا يقول أ.د/ عثمان امين: « اللغة العربية تفترض دائما أن شهادة الفكر أصدق من شهادة الحس، وأن الحقيقة والماهية متقدمة على الوجود، بخلاف ما ذهبت إليه الفلسفات الوجودية الحديثة من أن الوجود سابق على الماهية، وهذه المثالية -التي هي أصيلة في اللغة العربية- قد عبر عنها ديكرت فيما سمي بعد بـ: «الكوجيتو الديكرتي» وكانط فيما سماه هو بـ: « الثورة الكوبرنيقية»، ومعناها إجمالا: أن الفكرة هي المقياس الذي تقاس به الأشياء، وأن عالم الأعيان - أي: عالم الحواس - مقدور على قدر «عالم الأذهان»، أي: عالم الوجدان، وليس من شك عند الباحثين في قضايا الفكر الغربي أن هذه القضية بالذات قد انعقد لها لواء النصر، لا عند كبار فلاسفة العرب وحدهم؛ كالفارابي وابن سينا وابن رشد، بل عند كبار علماء الكلام؛ كالنظام والخياط والجاحظ.

فإذا رجعنا إلى تأمل هذه الفكرة في فلسفة اللغة العربية وجدنا غالب الرأي عند علماء اللغة قد عبر عنه صاحب كتاب (الطراز) في قوله: «الحقيقة في وضع الألفاظ إنما هو للدلالة على المعاني الذهنية دون الموجودات الخارجية»، وبمضي المؤلف العربي في إقامة البرهان على هذه الحقيقة بقوله: «إننا إذا رأينا شجراً من بعيد وظنناه حجراً سميناً بهذا الاسم، فإذا دنونا منه وظنناه شجراً فإننا نسميه بذلك، فإذا ازداد التحقيق بأنه طائر سميناً بذلك، فإذا حصل التحقيق بأنه رجل سميناً به فلا تزال الألقاب تختلف عليه باعتبار ما يفهم منه من

وحاصل ما سبق يهدم كلام المؤلف هدمًا؛ لما يلي:

١- يُعَلِي من شأن الفكرة على الحس، مما يدل على أن مقررات المادية الجدلية تتعارض مع خصائص لغتنا وعقيدتنا التي تدين لقوة غيبية فوق الكون وقوانينه، وأنها هي التي تُصلحه وتفرض عليه أحكامها التي قد لا تُدرك حكمُها.

٢- لا شك أن منهج علماء القرآن في البدء بالنص الذي يحمل الأفكار إلى الواقع المخلوق والمحكوم هو الموافق لطبيعة الوجود والواقع واللغة، وأن ما تقرره المادية الجدلية هو قلبٌ للحقائق وتعكيسٌ للأمور.

الصور الذهنية؛ فدل ذلك على أن إطلاق الألفاظ إنما يكون باعتبار ما يحصل في الذهن؛ ولهذا فإنه يختلف باختلافه. وينتهي صاحب «الطراز» إلى تأكيد ما نحن بسبيله؛ وهو المعنى الذي أشرنا إليه في مذاهب كبار الفلاسفة من قدماء ومحدثين؛ من أن تصور الأشياء في الذهن هو المرتبة الأولى في تحققها وثبوتها، فيقول: «الأشياء في التحقق والثبوت على مراتب أربع؛ الأولى منها: تحققها في الذهن وتصورها، وهذه الرتبة هي الأصل، وعليها تترتب الوجودات الأخرى؛ لأن الشيء إذا لم يكن له تصور في الذهن وتحقق فإنه لا يمكن وجوده في الخارج بحال، ثم بعض التصورات الذهنية قد يستحيل وجودها في الخارج؛ كما تقول في القديم - تعالى - والقدرة القديمة، والحياة القديمة، فإن هذه وإن أمكن تصورها في الذهن، لكن لا حقيقة لها في الخارج بالبرهان العقلي»

ينظر: فلسفة اللغة العربية، أ.د/ عثمان أمين ضمن كتاب: إضاءات أزهرية حول مثالية اللغة العربية (ص ١٠١ إلى ١٠٣)، وكيونة اللغة العربية، تأليف الدكتور/ عبدالفتاح بدوي

(ص ٥٢)

المطلب الثاني

نقد ادعاء أن المنهج الصحيح هو تطبيق
النظريات الأدبية على القرآن الكريم

قال المؤلف: "إن الدراسة الأدبية-ومحورها مفهوم النص- هي الكفيلة بتحقيق وعي علمي نتجاوز به موقف التوجيه الأيديولوجي السائد في ثقافتنا وفكرنا"^(١) ويقول: "والقول إن كل نص رسالة يؤكد أن القرآن والحديث النبوي نصوص يمكن أن نطبق عليها مناهج تحليل النصوص، وذلك ما دام ثمة اتفاق على أنها رسالة، ومعنى ذلك أن تطبيق نهج تحليل النصوص اللغوية الأدبية على النصوص الدينية لا يفرض على هذه النصوص نهجاً لا يتلاءم مع طبيعتها، إن المنهج هنا نابع من طبيعة المادة ومتلائم مع الموضوع.... وفي منهج تحليل النصوص تتبع مصداقية النص من دوره في الثقافة، فما ترفضه الثقافة وتنفيه لا يقع في دائرة النصوص، وما تتلقاه الثقافة بوصفه نصاً دالاً فهو كذلك."^(٢)

تحليل الدعوى:

(أ) المؤلف حدد هدف دراسته في كتابه «مفهوم النص» بأنه يقصد تحقيق هدفين، الأول: إعادة ربط الدراسات القرآنية بمجال الدراسات الأدبية والنقدية^(٣)، والتسوية بين النص القرآني والنص الأدبي.
(ب) كيف حقيقة القرآن بأنه رسالة لغوية، واللغة من البشر، وهو نتاج ثقافتهم، فلا بد من بحث في بنية النص من هذه الحيثية، حيثية الرسول والواقع لا المرسل، فهذه الحيثيات هي التي تحدد آليات تشكل النص، وتصل النصوص الدينية بالنصوص الأدبية في الدائرة الهرمنيوطيقية^(٤).^(١)

(١) مفهوم النص (ص ١٠ وما بعدها)

(٢) المرجع السابق (ص ٢٦ وما بعدها) بتصرف

(٣) المرجع السابق (ص ١٨)

(٤) تعني علم التأويل أو علم التخريج أو التفسيرية أو الهرمنيوطيقا هي المدرسة الفلسفية التي تشير لتطور دراسة نظريات تفسير وفن دراسة وفهم النصوص في فقه اللغة واللاهوت

الرد

أولاً: التسوية بين القرآن الكريم والنصوص التاريخية تسوية خاطئة.

فقول المؤلف: " والقول إن كل نص رسالة يؤكد أن القرآن والحديث النبوية نصوصاً يمكن أن نطبق عليها مناهج تحليل النصوص، وذلك ما دام ثمة اتفاق على أنها رسالة، ومعنى ذلك أن تطبيق نهج تحليل النصوص اللغوية الأدبية على النصوص الدينية لا يفرض على هذه النصوص نهجاً لا يتلاءم مع طبيعتها" غير مسلم؛ لما سبق في المطلب السابق من حاكمية الكتاب والسنة على الواقع، ومثالية اللغة التي تقدم الفكر على الواقع، فطبيعة منهج المؤلف الذي يريد تطبيقه على الكتاب والسنة يتنافى تماماً مع طبيعة الكتاب والسنة واللغة.

ثم إن فكرة تطبيق المناهج الأدبية على النصوص جاءت من الغرب الذي أراد أن يفعل هذا مع نصوص الكتاب المقدس، وفرق شاسع البون بين القرآن ونصوص الكتاب المقدس، ذلك أن القرآن الكريم مقدس، لم تَطْلُهُ يدُ التحريف والتغيير، فكيف يمكن التعامل معه بهذا المنهج؟!

يقول فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب، حفظه الله: " ومنهم من لجأ إلى تطبيق علم الهيرمينوطيقا في تفسير النص القرآني وتأويله، ونادى بأن فهم النص غير ثابت وليس نهائياً، وأن قراءته مفتوحة ولا فرق في ذلك بين نص أدبي أو نص ديني، والقرآن - عندهم- نص لغوي، تكوّن في ثقافة عصره وظروفها وتاريخها، ولا يمكن فصله عن بيئته وثقافته التي نزل عليها، وأصحاب هذا التوجه ينطلقون من التسوية بين النص القرآني المقدس والنصوص التاريخية، ونصوص التوراة والإنجيل في خضوعها للقراءات الحداثية غير عابئين بالفروق الدقيقة الحاسمة بين نص القرآن وهذه النصوص، من حيث اختلاف طبيعة المصدر، فهو في القرآن إلهي مقدس وفي غيره

والنقد الأدبي. ويستخدم مصطلح هرمنيوطيقا في الدراسات الدينية للدلالة على دراسة وتفسير

النصوص الدينية. [معجم المصطلحات الفلسفية، د/ مراد وهبه (ص ٦٦٤)]

(١) مفهوم النص والاعتزال المعاصر، بقلم: جابر عصفور (ص ٣٩)

كتابات أو إلهامات مؤلفة ومدونة، ونص القرآن الكريم لم يتعرض لتدخل بشري بالرواية أو باستحضار الأحداث أو بالصياغة بعد موت صاحب النص، أو بوحى من تأثير البيئة والواقع التاريخي، ولم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم أي دور أو عمل إلا نقله وتبليغه للناس كما سمعه ووعاه عن الوحي.^(١)

ثانياً: فشل النظريات الأدبية في تحقيق مقاصد الغرب منها دليل ردها.

بم أن الدكتور/ نصر يتبنى التاريخية، وهذه النظريات فشلت في تحقيق أهدافها في بيئتها، ولم تحقق المقاصد التي وضعت من أجلها، ولا زال الغرب يتخبط في سبيل الوصول إلى المنهج التي يحقق لهم السعادة، فشلت الحداثة بكل نظرياتها، فجاءت ما بعد الحداثة تعيد النظر في معطيات الحداثة، فهل من المنطق أن نتمسك بنظريات تركها أصحابها؛ لقصورها وفشلها في تحقيق التنمية والمنهج الصحيح؟

المنطق العقلي يقول: إننا نمتلك منهجاً علمياً مؤصلاً ومُنقحاً، وأثبت على مدى التاريخ صلاحيته؛ لتحقيق العدل والمساواة بين الإنسانية، فهذا المنهج هو الأولى بأن نأخذ به ونطوره في بناء الحضارة.

والمؤلف كما ذكر في الهدف الثاني لدراسته وهو إعادة صياغة مفهوم جديد للإسلام غير المفهوم الذي صنعه الجماعات المتطرفة، فإننا نتفق معه على أن الأزهر الشريف والمؤسسات العلمية التي تسير على منواله على رفض هذا الفكر، ورفض المقولات الخاطئة التي يقول بها، لكن في الحقيقة صنيع المؤلف لا يقل خطراً عما صنعه الجماعات المتطرفة.

ثالثاً: محاولة خاسرة.

محاولة المؤلف نفي التعارض بين تطبيق النظريات الأدبية على النص القرآني وما يؤدي إلى ذلك من نفي قداسته محاولة فاشلة، ذلك أن التلازم بينهما تلازم واضح لا يحتاج إلى أن ما صنعه من محاولته إظهار احترامه للقرآن الكريم، وتأمل أيها القارئ الكريم هذين النصين له:

" والاعتراض الذي يمكن أن يشار هنا كيف يمكن تطبيق منهج تحليل النصوص على نص الهي؟! وقد يتضمن الاعتراض بعض الاتهام والعياذ بالله

(١) التراث والتجديد (ص ١٤)

من سوء النية حول تطبيق مفاهيم البشر ومناهجهم على نص غير بشري من حيث أصله ومصدره والحقيقة أن هذا الاعتراض إن صدر فإنما يصدر عن ذلك النمط من الفكر التأملّي المثالي الذي أشرنا إليه بوصف علمي باسم الديالكتيك الهابط. وإذا كان أصحاب هذا المنهج يتفقون معنا كذلك في أن الله سبحانه وتعالى ليس موضوعاً للتحليل أو الدرس، وإذا كانوا يتفقون معنا كذلك في أنه سبحانه شاء أن يكون كلامه إلى البشر بلغتهم، أي: من خلال نظامهم الثقافي المركزي، فإن المتاح الوحيد أمام الدرس العلمي هو درس الكلام الإلهي من خلال تحليل معطياته في إطار النظام الثقافي الذي تجلّى من خلاله. ولذلك يكون منهج التحليل اللغوي هو المنهج الوحيد الإنساني الممكن لفهم الرسالة، وفهم الإسلام من ثم"

مع قوله: "وفي منهج تحليل النصوص تنبع مصداقية النص من دوره في الثقافة، فما ترفضه الثقافة وتنفيه لا يقع في دائرة النصوص، وما تتلقاه الثقافة بوصفه نصاً دالاً فهو كذلك."

أيّ قداسة لهذا الكتاب بعد أن صارت الثقافة هي الحاكمة، ما ترفضه وتنفيه لا يقع في دائرة النصوص، وما تثبته هو النص؟!!

هذا الكلام لا يقبله إلا إنسان يريد أن يتحلل من حاكمية الكتاب إلى تحكيم البشر وأهواءهم، وقد سبق في الفصل الأول في المطلب الثالث الرد على دعوى عدم التعارض بين حاكمية الثقافة ونسبة النص الألوهية، ببيان أن العقول الخالصة من الأهوام تحكم بالتعارض بمجرد تصور الطرفين ومحاولة الجمع بينهما.

رابعاً: منهج علماء القرآن في التعامل مع القرآن الكريم

وبعد أن انتهى بنا نقد دعاوى المؤلف حول حقيقة القرآن والتراث، ونقد المنهج الذي خطه لفهم القرآن الكريم يجدر بي في عجلة سريعة أن أعرض للنموذج المعرفي لعلماء المسلمين، ثم منهج علماء التفسير في التعامل مع كتاب الله، وإظهار مدى اتساقه ومعقوليته.

***نظرية المعرفة عند علماء المسلمين:**

قال الإمام الزركشي: "مدارك العلوم ثلاثة: حسّ وخبرٌ ونظرٌ" (١)
فالمصادر التي تُستقى منها المعرفة عند علماء المسلمين ثلاثة وليست واحدة، الحواس السليمة، والعقل، والخبر الصادق، وعلمائنا في بداية الكتب يؤسسون العقل المسلم على أن الحاكم ثلاثة: الشرع، والعادة، والعقل. قال السنوسي في «أم البراهين»: "الحكم هو إثبات أمر أو نفيه، والحاكم بذلك إما الشرع أو العادة أو العقل" (٢)
وفي العقائد النسفية: "وَأَسْبَابُ الْعِلْمِ لِلْخَلْقِ ثَلَاثَةٌ: الْحَوَاسُ السَّلِيمَةُ، وَالْخَبَرُ الصَّادِقُ، وَالْعَقْلُ" (٣)

وهذه الثلاثية نشأ تعددها من تعدد العالم الذي نتعامل معه، فهناك عالم الأشياء وعالم الأشخاص وعالم الأفكار كما قررها مالك بن نبي، تبدأ معرفة الإنسان من عالم الأشياء بإدراك ما حولنا من أشياء، ثم نرتقي إلى معرفة الأشخاص، ثم منهم إلى عالم الأفكار، وعند بلوغ سن الضعف يرجع من الأفكار إلى الأول. وكذلك المجتمع يولد بالعوالم الثلاثة إلى أن يصل إلى عالم الأفكار، فإذا انكفأ على ذاته تجمدت الفكرة وتنتج المسيرة نحو الوراء (٤)
والبناء الحضاري والمعرفي لا يتم إلا بتوزيع مصادر المعرفة على كل عالم بما يناسبه، فإذا ما استبدّ واحد من هذه العناصر على حساب الآخرين فتمة أزمة حقيقية، وهذا ما حدث في العالم الغربي الذي اعتمد الحس وعالم الأشياء على حساب العقل والخبر وعالم الأشخاص والأفكار. وعالم الأفكار موزع على الحس إن كان مصدرها الحس، وعلى الخبر إن كان مصدرها لا سبيل لها إلى الحس والعقل، ولا بد من الأفكار التي تتعامل مع الحس، كما لا بد من الأفكار التي تأتي بمعاني الدين. (٥)

(١) فتح الرحمن على مقدمة لفظة العجلان (ص ١١)

(٢) (الدسوقي على أم البراهين (ص ٣٣)

(٣) (مجموعة الحواشي البهية على شرح العقائد النسفية (١/٣٩)

(٤) (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي (ص ٣٠-٤٠)

(٥) (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي (ص ٥٩-٦٥)

مدارك التفسير اثنان:

بناء على أن نظرية المعرفة عندنا تقوم على الحس والخبر والعقل؛ فإن فهم القرآن تقوم ينابيعه ومصادره على أمرين:

الأول: الخبر.

والأخبار المعتمدة في عملية التفسير ترجع إلى ثلاثة مصادر:

المصدر الأول: كتاب الله تعالى، فهو المصدر الأول للتشريع، وإذا ورد التفسير فيه فهو أفضل التفسير؛ انطلاقاً من مسلمات أربعة بديهية:

أحدها: أن صاحب البيت أدري بما فيه، وأن خير من يفسر القول هو قائله بنفسه.

ثانيها: أن من المعلوم من الدين بالضرورة أن القرآن هو المصدر الأول والدعاية الرئيسية التي يقوم عليها بنیان شريعة الإسلام وبحيث لا يمكن أن يتم الإيمان بهذه الشريعة إلا بعد الأخذ بمحتوى هذا المصدر والإذعان لجميعه جملة وتفصيلاً.

وثالثها: أن ذلك ولا ريب هو من جملة مقتضى الأوامر الإلهية الموجبة لطاعته تعالى فيما تنازعنا فيه فضلاً عما اتفقنا عليه من أمثال قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]

رابعها: كون القرآن كلام رب العالمين أفضل كل قول وأحسن كل حديث، فلا يعدل عن الأفضل ما أمكن إلى المفضول وأنه معجزة بجملته وتفصيله بلفظه ومعناه، بهدفه وغايته إلى غير ذلك من عظيم خصائصه وكريم فضائله فكيف يدعه العاقل إلى ما دونه في جميع ذلك.

المصدر الثاني: السنة الصالحة للحجية، فما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسند صحيح أو حسن خير تفسير؛ انطلاقاً منهم في ذلك من مسلمات أربع:

أولها: إن خير من يمكن أن يفسر القرآن، ومن ينبغي أن يطلب منه تفسيره بعد الله تعالى في حكم كتابه هو رسوله الذي حدثنا ربه فيما حدث من وصفه أنه

﴿وَمَا يَطِئُ عَنْ أَمْرِ﴾ (٢) إِنَّهُ لَا وَحْيَ يُوحَى ﴿[النجم: ٣-٤] فهو إذا صلى الله عليه وسلم وبمقتضى كونه رسولا أولا، ثم بمقتضى شهادة هذا النص وأشباهه.

الثانية: أن خير من يمكن أن يفسر الشيء من تكون أهم وظائفه بيان ذلك الشيء، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]

الثالثة: أن من المعلوم من دين الإسلام بالضرورة أن السنة هي الأصل الثاني لهذا الدين والمصدر التالي للقرآن مباشرة في جميع كليات هذا الدين وجزئياته، فالمجاز له إذن مع وجدان طلبته فيه راكب لعظيم مخالف لمقتضى ضروريات هذا الدين.

الرابعة: إن هذا- أعني أن يطلب البيان من السنة ما تيسر فيها- هو من جملة مقتضى الأوامر الإلهية الموجبة لطاعته والامتناع عن مخالفته في كل ما يأتي وما يذر من أمثال قوله عز قائلًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] الآية.

ثالثها: أقوال الصحابة والتابعين.

فقول الصحابي فيما لا مجال فيه للاجتهاد ولم يُعرف بالأخذ عن أهل الكتاب، أو كان مرويّه لا علاقة له بما لدى أهل الكتاب له حكم المرفوع^(١).

(١) قال الشيخ ابن حجر العسقلاني: (ومثال المرفوع من القول حكمًا لا تصريحًا أن يقول الصحابي - الذي لم يأخذ عن الإسرائيليات - ما لا مجال للاجتهاد فيه، ولا له تعلّق ببيان لغة أو شرح غريب، كالإخبار عن الأمور الماضية. وفي تدريب الراوي: (وأما قول من قال: تفسير الصحابي مرفوع فذلك في تفسير يتعلّق بسبب نزول آية أو نحوه، وغيره مؤفوف). قال الإمام السيوطي: ((أو نحوه) مما لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبي ﷺ ولا مدخل للرأي فيه، (وغيره مؤفوف)).

قلت: وكذا يقال في التابعي، إلا أن المرفوع من جهته مُرسَلٌ

انظر: نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر (ص ١٠٣) تدريب الراوي (١٢٠/٥ وما بعدها)

وسبب ذلك- كما قال حجة الإسلام الغزالي- مشاهدتهم قرائن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتلاق قلوبهم أمورا أدركت بالقرائن؛ فسددهم ذلك إلى الصواب من حيث لا يدخل في الرواية والعبارة، إذ فاض عليهم من نور النبوة ما يحرسهم في الأكثر عن الخطأ^(١)

وقول التابعي له حكم المرفوع المرسل بالضابط السابق، ويضاف إليه أن يكون التابعي من أئمة التفسير، أو يتأيد قوله بمرسل آخر مثله.

وإنما يترجح عندهم الأخذ بمثل هذا القول؛ لأن إمامة من أثر عنه ذلك المرسل والعلم بنقله أغلب تفسيره عن الصحابة يورث القلب غلبة ظن بأن هذا المرسل هو من جملة مروياته عن الصحابة لا عن تابعي مثله، وأنه بالتالي صحيح الثبوت عن النبي صلى الله عليه وسلم لأن له حكم المرفوع كما هو الفرض، وكذلك حيث يعتضد هذا المرسل بآخر مثله ونحوه، إذ في مثل هذا الاعتضاد ما يقوي كذلك جانب الثبوت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويرجح في النفس قبوله.^(٢)

الثاني: (٣) النظر، وهو الاجتهاد القائم على تحصيل العلوم التي لا بد منها في فهم القرآن، والتي حصرها الإمام السيوطي في خمسة عشرة علماً.^(٤) هذه هي أصول مدارك التفسير المتفرعة عن نظرية المعرفة وأسبابها، وكما رأيت في فلسفة كل مدرك منها ما يقضي العاقل بأنه منهج معقول يطمئن الباحث إلى نتائجه، وهو يمزج بين العقل والنقل، والنص وما حول النص من معارف وفهوم في تكامل يؤدي إلى الثقة بما وصل إليه الإنسان من معارف.

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (١/١٣٣)

(٢) يراجع: الدخيل في التفسير، الأستاذ الدكتور/ إبراهيم خليفة (ص ٢٣ - ص ٣٥)

(٣) أي: من مدارك التفسير.

(٤) (٤/٤٧٦) الإتيان في علوم القرآن

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث الذي تناول دعاوى الدكتور/ نصر حامد أبو زيد في رؤيته للقرآن الكريم والتراث ومنهج الفهم، أسجل خلاصة ما وصلت إليه من نتائج:

أولاً: عن المؤلف:

١. يدّعي بداهة بعض الدعاوى المخالفة لمنطق العقول، ووقع في مخالفات صريحة لمقررات المعقول، وقع في التناقض والدور وغير ذلك من المقررات التي لا ينبغي لباحث أن يخالفها.
٢. أكثر ادعاءات المؤلف عارية عن الدليل، وتبين من بحثها أنها فاقدة للمعقولية، وتؤدي إلى الفوضى الفكرية.
٣. بحث في التمهيد قضية مفهوم النص، وحاول أن يؤصل من خلال المادية الجدلية أن حقيقة النص هو ما ينتجه الواقع من أفكار وفلسفات، فينبغي أن يحمل النص عليه، وهذا هو معنى التجديد عنده.

ثانياً: عن الدعاوى.

(أ) بالنسبة لدعوى أن القرآن منتج ثقافي ظهر من خلال البحث ما يلي:

١. أن الاهتمام بالقرآن الكريم وفحص حقيقته جانبٌ معتنى به عند علماء الأمة، وأنهم استثمروه لاستخراج الأحكام لكل حادثة، وقامت علوم الإسلام بدراسة القرآن الكريم من جميع جوانبه من حيث اللفظ والرسم، واستفادوا من درجات ثبوته متواتراً وأحاداً.
٢. إثبات الكلام النفسي أو وجود القرآن في اللوح المحفوظ لا يتعلق به أثر كبير عند علماء القرآن، ولم يفتح الباب لأقويل خطابية كما ظن دعاة الحداثة؛ لأن الجانب اللفظي منه هو محل الاستنباط.
٣. مضامين القرآن الكريم تؤكد على أنه مُقرر ومُغير ومتفرد في بلوغ الكمال في معانيه وبيانه وتشريعه، مما يدل على أنه سما على كل زمان ومكان، ومع تطور الزمان يبقى القرآن الدستور الحكيم والعلاج النافع لكل شيء.

٤. القول بعدم تناقض القول بأن القرآن منتج ثقافي وأنه إلهي غير مسلم، بل القرآن هو الأصيل والحاكم والواقع تابع له، أما محاولة الجمع بينهما أو إعطاء الأصالة للواقع فقول بنفي صفة الألوهية عن القرآن عند العقلاء.

(ب) بالنسبة للدعوى المتعلقة بالتراث

١. التراث منهج ومسائل، وللمنهج أصول نستمد منها المعرفة، وليس من الواقع، وهذا التراث العاكس لحقائق الشريعة منه الثابت الذي لا يقبل التغيير ومنه المتغير، والثابت هو: العقائد القطعية التي يجب الإيمان بها؛ لقيام الدليل اليقيني في ثبوته ودلالته عليها، والأحكام العملية التي جاء بها الدين بصورة واضحة قاطعة، والقواعد الكلية التي أخذت من الشريعة بنص واضح بلا معارضة دليل، وعُلم من الشرع بعد الاستقراء التام.

٢. منهج علماء القرآن في التأليف في علوم القرآن قام على جمع الأدلة، وتركيبها، والإبداع في الاستنباط، وعلماء المسلمين قديما وحديثا يعتقدون أن دائرة علم التفسير وعلوم القرآن من الدوائر التي لم تنضج ولم تحترق، وأنهم لم يؤلفوا في علوم القرآن خوفاً عليه من الضياع، بل قياماً بحق العلم.

(ج) فيما يتعلق بمنهجه في التعامل مع القرآن الكريم.

١. أقرر أن النص هو الأصل والحاكم، والواقع هو المحكوم عليه، والواقع ظرف لاستقبال الأحكام، ولا أثر له البتة في تشكيل المعاني والأحكام، وثبت بما سبق أنه على المستوى الكلامي والفقهية أن الوجود مخلوق لله، وأن العرف والمكان لا يؤثر في تشكيل الأحكام الفقهية، بل الحكم يُؤخذ من الشرع، وتغيير الحكم بسبب العرف راجع إلى تغيير العرف الذي بُني عليه الحكم الأول، وعلى كل لا يُعدّ مثله من باب اختلاف الأحكام.

٢. اختصاص لغة القرآن بخصيصة المثالية يهدم منهج المؤلف في النظر إلى الواقع وجعله هو الأساس في تحميل النص ما يراه.

٣. لا يمكن فهم القرآن الكريم عن طريق تطبيق النظريات الأدبية، ولا يمكن التسوية بين القرآن الكريم وسائر النصوص الأخرى؛ لوجود الفارق الكبير بينهما من حيث إن القرآن معجز ومحفوظ، وسائر النصوص فاقدة لهذين الوصفين. وأيضا فشل النظريات الأدبية في تحقيق مقاصد الغرب منها دليل ردها.

٤. لعلماء القرآن الكريم منهجٌ علميٌّ نابعٌ من النظرية العامة للنموذج المعرفي الإسلامي الذي يستمد المعرفة من الحواس السليمة والعقل والخبر الصادق، وكذلك علم التفسير يستمد أصوله من الخبر المتمثل في الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين، والنظر المؤسس على العلوم العقلية والنقلية التي تضمن الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى، وهذه المنهجية نابعة من تفكير علمي معقول يطمئن العاقل إلى نتائجه.

فهرس بأهم المراجع:

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ط/ دار الفجر للتراث.
- إتمام الدراية شرح النقاية، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، ط/ دار الضياء.
- أثر القرآن الكريم في اللغة العربية الشيخ أحمد حسن الباقوري، ط/ مجلة الأزهر، عدد شهر رجب ١٤٤٥هـ.
- إحياء علوم الدين، حجة الإسلام الغزالي، ط/ دار الشعب.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المؤلف: مصطفى صادق الرافعي، المكتبة التوفيقية.
- الاقتصاد في الاعتقاد، لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، ط/ دار البصائر.
- إجماع العوام عن علم الكلام للإمام الغزالي، ط/ دار المنهاج، ٢٠١٧ م.
- أنا نصر أبو زيد، جمال عمر، ط/ مكتبة الأسرة، ٢٠١٠ م.
- إيضاح المبهم من معاني السلم في المنطق، الشيخ أحمد الدمنهوري، ط/ الحلبي.
- بحوث ومقالات، سليمان دنيا، ط/ مجمع البحوث الإسلامية، شهر مارس ٢٠٢٢ م.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ) ط/ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي.
- التراث والتجديد فضيلة الإمام الأكبر، الأستاذ الدكتور أحمد الطيب، طبعة مجلة الأزهر سنة ١٤٣٥هـ.
- تصنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي، ط/ مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.
- التعريفات، المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، ط/ دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ.
- تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب، ط/ دار الكتب العلمية.

- التفسير معالم حياته/منهجه اليوم، الشيخ أمين الخولي. ط/ مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣م.
- تقريب المرام في شرح تهذيب الكلام، الشيخ عبدالقادر السنندجي الكردستاني، ط/ المكتبة الأزهرية للتراث.
- تقرير الدكتور مصطفى الشكعة على كتاب الإمام الشافعي للمؤلف، ضمن كتاب: قصة أبوزيد وانحسار العلمانية في جامعة القاهرة، ط/ دار الاعتصام.
- التلويح على التوضيح لمتن التنقيح، للعلامة السعد التفتازاني، ط/ دار المكتبة العصرية، بيروت، سنة ٢٠٠٥م.
- التراث والمعاصرة، أكرم ضياء العمري، ط/ مكتبة الأمة.
- الجبر والمقابلة، محمد بن موسى الخوارزمي، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- جدل الحداثة وما بعد الحداثة في الفكر الإسلامي المعاصر، إحسان العارضي، ط/ مركز الفكر الإسلامي المعاصر، ٢٠١٣م.
- حاشية البناني على شرح المحلي على جمع الجوامع، ط/ عيسى الحلبي.
- حاشية البيجرمي على الإقناع للخطيب الشربيني، ط/ الحلبي.
- حاشية الدسوقي على أم البراهين، ط/ الحلبي.
- حاشية نسמת الأسحار على شرح إفاضة الأنوار لابن عابدين، ط/ مصطفى الحلبي.
- الخروج من التيه د/ عبدالعزيز حمودة، ط/ عالم المعرفة، ٢٠٠٣م.
- الدخيل في التفسير، الأستاذ الدكتور/ إبراهيم خليفه، بدون طبعة.
- دراسات عن القرآن الكريم بقلم الشيخ محمود شلتوت، ط/ مجلة الأزهر، عدد رمضان ١٤٣٥ هـ.
- سقوط الماركسية، وحيد الدين خان، ط/ رابطة الجامعات الإسلامية.
- شرح المواقف للسيد الشريف الجرجاني، ط/ المكتبة الأزهرية.
- ضحى الإسلام، أحمد أمين، ط/ مكتبة الأسرة.

- الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ط/ دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠م.
- العقيدة وبناء الإنسان، أ.د/ عبدالفتاح بركة عضو هيئة كبار العلماء، ط/ هيئة كبار العلماء، عدد شهر رمضان ١٤٤٥ هـ
- فلسفة اللغة العربية، أ.د/ عثمان امين ضمن كتاب: إضاءات أزهريّة حول مثالية اللغة العربية، ط/ مجلة الأزهر ١٤٤٦ هـ.
- فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت مع كتاب المستصفى للإمام الغزالي، ط/ دار الفكر.
- الفوائد المكية، فيما يحتاجه طلبة الشافعية من المسائل والضوابط والقواعد الكلية، الشيخ علوي بن أحمد السقاف، ط/ كشيدة.
- الكلام الموثوق في تحقيق أن القرآن كلام الله غير مخلوق الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي، ط/ مكتبة الغانم.
- كينونة اللغة العربية، تأليف الدكتور/ عبدالفتاح بدوي، ط/ مجلة الأزهر ١٤٤٠ هـ
- ما بعد الحداثة، باسم علي خريسان، ط/ دار الفكر، ٢٠٠٦م.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المؤلف: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ط/ دار الفكر، بيروت - ١٤١٢ هـ
- مجموعة الحواشي البهية على شرح العقائد النسفية، ط/ دار المصطفى.
- المدخل الفقهي العام، مصطفى الزرقا، ط/ دار القلم
- مدخل إلى القرآن الكريم، د/ محمد عبدالله دراز، ط/ دار القلم، الكويت.
- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ط/ دار الفكر، دمشق.
- معجم المصطلحات الفلسفية لمراد وهبه، ط/ دار قباء الحديثة.
- معيار العلم للإمام الغزالي، ط/ دار المعارف بمصر، تقديم/ سليمان دنيا.
- مسألة ترجمة القرآن لشيخ الإسلام مصطفى صبري، ط/ المكتبة السلفية.

- مفهوم النص والاعتزال المعاصر، بقلم: جابر عصفور، ط/مجلة إبداع السنة ١٩٩١، شعبان - العدد ٣.
- مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، للدكتور/ نصر حامد أبو زيد، ط/مكتبة الفجر الجديد.
- مقاصد الشريعة الإسلامية، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، ط/ مكتبة دار السلام.
- مقدمة ابن خلدون، ط، دار الشعب.
- مقالات في أصالة المفكر المسلم، د/ فوقية حسين، ط/دار الفكر العربي.
- الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ)، ط/مؤسسة الحلبي.
- من هدي القرآن، الشيخ أمين الخولي ط/ مكتبة الأسرة، الطبعة الرابعة.
- المنثور في القواعد الفقهية، المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، ط/ وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
- موسوعة النظريات الأدبية: د/ نبيل غانم، ط/ الشركة المصرية العالمية للنشر.
- موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين لشيخ الإسلام مصطفى صبري، ط/ صادر.
- نقض أوهام المادية الجدلية، الشهيد/ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ط/ دار الفكر.

- Al-Manthur fi al-Qawa'id al-Fiqhiyyah, author: Abu Abdullah Badr al-Din Muhammad ibn Abdullah ibn Bahadur al-Zarkashi (died: ٧٩٤ AH), published by the Ministry of Endowments and Islamic Affairs - Kuwait, second edition, ١٤٠٥ AH.
- Encyclopedia of Literary Theories: Dr. Nabil Ghanem, published by the Egyptian International Publishing Company.
- The position of reason, science, and the scholar towards the Lord of the Worlds and His Messengers, by Sheikh al-Islam Mustafa Sabri, published by Sader.
- Refuting the illusions of dialectical materialism, the martyr/ Dr. Muhammad Saeed Ramadan Al-Buti, published by Dar Al-Fikr.

- Definitions, author: Ali bin Muhammad bin Ali Al-Zayn Al-Sharif Al-Jurjani, published by Dar Al-Kitab Al-Arabi - Beirut, first edition, ١٤٠٥ AH
- Al-Baydawi's interpretation with Al-Shihab's commentary, published by Dar Al-Kotob Al-Ilmiyyah.
- Interpretation: Milestones of His Life/His Approach Today, Sheikh Amin Al-Kholi. Published by Al-Usra Library, ٢٠٠٣.
- Approximating the goal in explaining the refinement of speech, Sheikh Abdul Qadir Al-Sinandji Al-Kurdishani, published by Al-Azhar Library for Heritage.
- Dr. Mustafa Al-Shakaa's report on the author's book "Imam Al-Shafi'i," included in the book: The Story of Abu Zayd and the Decline of Secularism at Cairo University, published by Dar Al-I'tisam.
- Al-Talwih ala al-Tawdih li-Tanqih, by the scholar Al-Saad Al-Taftazani, published by Dar Al-Maktaba Al-Asriya, Beirut, ٢٠٠٥ AD.
- Heritage and Modernity, Akram Diaa Al-Omari, published by Al-Ummah Library.
- Algebra and Balancing, Muhammad ibn Musa al-Khwarizmi, published by the Egyptian General Book Authority.
- The Controversy of Modernity and Postmodernity in Contemporary Islamic Thought, Ihsan Al-Ardi, published by the Center for Contemporary Islamic Thought, ٢٠١٣.
- Al-Banani's commentary on Al-Mahalli's explanation of Jami' Al-Jawami', published by Issa Al-Halabi.
- Al-Bajrami's commentary on Al-Iqna' by Al-Khatib Al-Sharbini, published by Al-Halabi.
- Al-Dasouqi's commentary on Umm al-Burhan, published by Al-Halabi.
- Commentary on Nasmat al-Ashar on the explanation of Ifadat al-Anwar by Ibn Abidin, published by Mustafa al-Halabi.
- Getting out of the maze, Dr. Abdel Aziz Hamouda, published by Alam Al-Ma'rifa, ٢٠٠٣.

- Al-Dakhil in Interpretation, Professor Dr. Ibrahim Khalifa, no edition.
- Studies on the Holy Qur'an by Sheikh Mahmoud Shaltout, published by Al-Azhar Magazine, Ramadan ١٤٣٥ AH issue.
- The Fall of Marxism, Wahiduddin Khan, published by the Association of Islamic Universities.
- Explanation of the positions by Sayyid al-Sharif al-Jurjani, published by Al-Azhar Library.
- The Sacrifice of Islam, Ahmed Amin, published by the Family Library.
- The Qur'anic Phenomenon, Malek Bennabi, published by Dar Al Fikr, Beirut, ٢٠٠٠.
- Doctrine and Human Development, Prof. Dr. Abdel Fattah Baraka, Member of the Council of Senior Scholars, published by the Council of Senior Scholars, Ramadan ١٤٤٥ AH issue.
- Philosophy of the Arabic Language, Prof. Dr. Othman Amin, in the book: Azharite Illuminations on the Idealism of the Arabic Language, published by Al-Azhar Magazine, ١٤٤٦ AH.
- Fawaatih al-Rahmut with the explanation of Muslim al-Thubut and the book al-Mustasfa by Imam al-Ghazali, published by Dar al-Fikr.
- Al-Fawa'id Al-Makkiyyah, on the issues, rules, and general principles that Shafi'i students need, Sheikh Alawi bin Ahmed Al-Saqqaf, Kashida edition.
- The reliable statement on the fact that the Qur'an is the word of God and not created, by Sheikh Muhammad Idris Al-Kandahlawi, published by Al-Ghanim Library.
- The Being of the Arabic Language, authored by Dr. Abdel Fattah Badawi, published by Al-Azhar Magazine, ١٤٤٠ AH
- Postmodernism, by Basem Ali Khreisan, published by Dar Al Fikr, ٢٠٠٦.

- Majma' al-Zawa'id wa Manba' al-Fawa'id, author: Nur al-Din Ali ibn Abi Bakr al-Haythami, published by Dar al-Fikr, Beirut - ١٤١٢ AH
- A collection of beautiful notes on the explanation of the Nasafi creeds, published by Dar Al-Mustafa.
- The General Introduction to Jurisprudence, Mustafa Al-Zarqa, published by Dar Al-Qalam
- Introduction to the Holy Quran, Dr. Muhammad Abdullah Daraz, published by Dar Al-Qalam, Kuwait.
- The Problem of Ideas in the Islamic World, Malek Bennabi, published by Dar Al Fikr, Damascus.
- Dictionary of Philosophical Terms by Murad Wahba, published by Dar Quba Al-Hadathiya.
- The Standard of Knowledge by Imam Al-Ghazali, published by Dar Al-Maaref in Egypt, presented by Suleiman Dunya.
- The issue of translating the Qur'an by Sheikh al-Islam Mustafa Sabri, published by the Salafi Library.
- The concept of text and contemporary Mu'tazila, by: Jaber Asfour, published by Ibd'a Magazine, ١٩٩١, Sha'ban - Issue ٣.
- The Concept of Text, a Study in the Sciences of the Qur'an, by Dr. Nasr Hamid Abu Zaid, published by Al-Fajr Al-Jadeed Library.
- The Objectives of Islamic Law, Sheikh Muhammad al-Tahir Ibn Ashur, published by Dar al-Salam Library.
- Introduction to Ibn Khaldun, published by Dar Al-Shaab.
- Articles on the authenticity of the Muslim thinker, Dr. Fawqiya Hussein, published by Dar Al Fikr Al Arabi.
- Religions and Sects, Abu al-Fath Muhammad ibn Abd al-Karim ibn Abi Bakr Ahmad al-Shahrastani (died: ٥٤٨ AH), published by Al-Halabi Foundation.
- From the Guidance of the Qur'an, Sheikh Amin Al-Kholi, published by the Family Library, fourth edition.

Index of the most important references:

- Al-Itqan fi Ulum al-Quran, Jalal al-Din al-Suyuti, published by Dar al-Fajr for Heritage.
- Completion of Knowledge, Explanation of Purity, Abd al-Rahman bin Abi Bakr, Jalal al-Din al-Suyuti (died: ٩١١ AH), published by Dar al-Diaa
- The Impact of the Holy Qur'an on the Arabic Language, Sheikh Ahmed Hassan Al-Baqouri, published by Al-Azhar Magazine, Rajab ١٤٤٥ AH issue.
- Revival of the Religious Sciences, Hujjat al-Islam al-Ghazali, published by Dar al-Shaab.
- The Miracle of the Qur'an and the Eloquence of the Prophet, author: Mustafa Sadiq Al-Rafe'i, Al-Tawfiqiya Library.
- Economy in Belief, by the Proof of Islam Abu Hamid al-Ghazali, published by Dar al-Basa'ir.
- "Bridging the Common People from the Science of Theology" by Imam Al-Ghazali, published by Dar Al-Minhaj, ٢٠١٧ AD.
- I am Nasr Abu Zaid, Jamal Omar, published by the Family Library, ٢٠١٠.
- Clarification of the vague meanings of peace in logic, Sheikh Ahmed Al-Damanhour, Al-Halabi edition.
- Research and articles, Suleiman Dunya, published by the Islamic Research Complex, March ٢٠٢٢
- Al-Burhan in the Sciences of the Qur'an, Badr al-Din Muhammad ibn Abdullah ibn Bahadur al-Zarkashi (died: ٧٩٤ AH), published by Dar Ihya al-Kutub al-Arabiyya by Issa al-Babi al-Halabi
- Heritage and Renewal, His Eminence the Grand Imam, Professor Dr. Ahmed Al-Tayeb, Al-Azhar Magazine Edition, ١٤٣٥ AH
- Tashneef Al-Masame' bi-Jam' Al-Jawami' by Taj Al-Din Al-Subki, published by the Cordoba Library for Scientific Research and Heritage Revival, First Edition, ١٤١٨ AH - ١٩٩٨ AD.

